وداعا للمرض النفسي

تأليف

جون نايت

ترجمة

صالح الغمراوي

الكتاب: وداعا للمرض النفسي

الكاتب: جون نايت

ترجمة: صالح الغمراوي

الطبعة: ٢٠٢٠

صدرت الطبعة الأولى – ١٩٥٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

نايت ، جون

وداعا للمرض النفسي/ جون نايت، ترجمة: صالح الغمراوي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٨٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٧ – ٧٩ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ٤٩٣٠ / ٢٠٢٠

وداعا للمرض النفسي





تقديم

بين يدي القارئ الآن كتاب فريد في نوعه تناول كل ما يهم القراء معرفته عن التحليل النفسي، كأحد الأساليب المتبعة في علاج الأمراض النفسية.

غير أن وجه الجدة في هذا الكتاب أنه لم يعرض لنا نظريات علمية وضعها أحد الكتاب المشتغلين بالعلاج النفسي أمكن له استخلاصها نتيجة مشاهداته وأبحاثه التي قام بها على المرضى، وإنما الجديد في الأمر أن مؤلف الكتاب والمريض النفسي كانا شخصا واحدا، مما يجعل كل ما ورد به من معلومات وخبرات وأفكار إنما يعبر عن واقع نفسي، وأحاسيس حقيقية، ومشاعر صادقة، لما يعاني منه المريض النفسي، ولما يعتمل في داخله من صراع، ولما يدور في ذهنه من أفكار.

كما أنه يكشف عن الدوافع النفسية التي توجه سلوكنا، وعما يصيب هذه الدوافع من كبت أو عدم إشباع، وما يترتب على ذلك من آثار مرضية. وهو في الوقت نفسه يتحدث عن ميولنا ورغباتنا الخفية التي نعمل جاهدين على عدم إظهارها لمنافاتها للضمير الخلقي للفرد أو الجماعة. وكيف أن هذه الميول والرغبات تلح راغبة في التحقيق، فتعبر عن نفسها في صورة أحلام، أو فلتات لسان، وقد تكون مشبعة بالطاقة النفسية فتحدث الأمراض النفسية.

ولقد نقل إلينا المريض في هذا الكتاب، بأسلوب قصصي، كل ما سجله عن نفسه طوال مدة مرضه بصراحة تامة، وبصدق وأمانة، والمريض في هذه القصة – وهو مهندس كيميائي –كان مريضا بقرحة في المعدة – وهي أحد الأمراض التي ترجع أسبابها إلى اضطراب نفسي. ولقد سردنا كل ما كان يدور بينه وبين المعالج النفسي بالتفصيل في جميع الجلسات العلاجية طوال مدة العلاج الذي استمر عامين.

كما أنه نقل إلينا صورة واقعية عن العيادة النفسية التي عولج بها، وما بها من أثاث مريح بسيط في مظهره، وعن أثر المقابلة الأولى مع المعالج في نفسه، وما دار من حديث في هذه المقابلة وما تلاها من مقابلات.

ثم تحدث عن المشاعر التي كان يحس بها نحو المعالج، وكيف أنها كانت في البداية مشاعر كراهية، ثم تحولت إلى مشاعر حب شديد، وتعلق وجداني ورغبة في الاعتماد عليه كل الاعتماد، كما تحدث عن أسباب تولد هذه المشاعر بالتفصيل.

وأخذ المريض يتحدث إلينا عن مراحل نموه المختلفة منذ طفولته حتى بلغ سن السادسة والثلاثين عندما مرض بقرحة المعدة، ولقد تناول بالذكر كل ما صادفه في حياته من أحداث مهمة، وهو ما عبر عنه بالتداعي المطلق.

ثم عرج على العلاقات الأسرية التي تربطه بجميع أفراد أسرته، وذكر لنا ما كان يعلق به المحلل النفسي على جميع ذكرياته، وتحدث بإسهاب عن تاريخه الدراسي، وعن القلق الذي كان يعيش فيه للوصول إلى التفوق الدراسي على زملائه ليصل إلى مركز مرموق في المجتمع.

ثم أخذ يعرض ألوان الإحباط التي تعرض لها طوال سني حياته وأثر هذه الإحباطات في أحداث المرض النفسي، ولقد كان المريض بارعا في التعبير عن الانفعالات التي كانت تدور في نفسه كلما قرب من التعبير عن إحدى الذكريات المؤلمة التي كانت تغيب في طيات النفس اللاشعورية، وكيف أنه كان يتصبب عرقا، ويتلعثم، ثم ينطق بصعوبة بسبب وجود "مقاومة" شديدة ضد الإفصاح عن هذه الرغبات اللا اجتماعية، والذكريات المؤلمة.

ولم يغب عن صاحب القصة أن يذكر لنا معلومات هي في الواقع أركان مهمة في العلاج، وفي كل أنواع العلاج مثل مقابلة المعالج له بحرارة وترحاب، وإظهار الرغبة الشديدة في مساعدته. كما أوضح أن المعالج لم يدفعه إلى ذكر أي معلومات لا يرغب في ذكرها، بل كان يترك له حرية التعبير التلقائي نتيجة شعوره بالثقة في المعالج والاطمئنان إليه.

وتحدث عن مدة الجلسة العلاجية، وكيف أنها لم تكن طويلة مملة، ولم تكن قصيرة لدرجة تحول دون إتاحة الفرصة له الذكر ما يرغب في الإفضاء به،كما ذكر لنا التغير النفسي الذي كان يطرأ عليه من جلسة

إلى أخرى. وكان من بين ما ذكره المريض تقبل المعالج لمشاعر الكراهية التي كان يبديها نحوه في أول الأمر وهو ما يسمى "بالتمويل السلبي"، وتفسير المعالج لكل الألفاظ النابية التي كان يذكرها المريض، والتي كانت تدور في خلوة حتى أحال الكراهية إلى تعلق شديد، وهو ما يسمى "بالتحويل الإيجابي". ومن بين المسائل التي عرضت له في ذكرياته، والتي عبر عنها في الجلسات العلاجية، حياته الجنسية في طفولته، ومراهقته، وحياته الجامعية.

وقد كان دقيقًا في شرح تفاصيل كل مرحلة من حيث دوافعه الجنسية، وعلاقاته العاطفية، والآثار التي كانت تترتب على اتصاله بالساقطات، ومشاعر التقزز التي كانت تنتابه في أغلب الأحوال. كما أنه استطاع أن يذكر لنا – عن طريق التحليل النفسي – كثيرا عن الجنس في الطفولة، وما هي فكرة الطفل عن الولادة، والتناسل والعلاقات الجنسية.

ولقد كان ما كتبه عن الدوافع الجنسية في المراهقة يعتبر شيئا جديدا في تحليل مشاعر المراهق الحقيقية، ودوافعه ورغباته، وما يعانيه من كبت في بعض الأحيان، وأثر كل هذا في حياته. ولقد كان أمينا في معلوماته عندما تحدث عن تجاربه في ممارسة الحياة الجنسية بالجامعة، وذكر أنها كانت عدائية مليئة بوسائل الإخضاع والقهر، ولم ينجم عنها أي سرور أو متعة أو اكتفاء، بحيث جعلت منه المخالطة الجنسية إنسانا متوتر الأعصاب يشعر بالذنب.

ومما ذكره في هذه القصة المشاعر الأنثوية التي تبدو لدى بعض الأفراد نتيجة تعلقهم الشديد بأمهاتهم، وكيف أنهم يشعرون بالقلق الشديد تجاه هذه المشاعر مما يجعلهم يلجئون إلى أفعال تعويضية يثبتون بها لأنفسهم أنهم رجال حقا، وهو في كل هذا يذكر نص الحديث الذي يدور بينه وبين المعالج وما يعلق به الأخير في جميع المواقف. ثم أخذ يسرد لنا الأحلام التي قصها في الجلسات العلاجية، وتحدث عن الحلم الظاهر، وأصله الكامن في طيات اللاشعور. وتحدث عن الحيل اللاشعورية مثل الإبدال، والنقل، وغيرهما، وهو بطبيعة الحال لم يصل إلى كل هذا نتيجة التحليل النفسي الذي كان يقوم به المعالج له، مما يجعله يقف على الرمزية في الأحلام، وعلى كيفية تفسير أحلامه المزعجة التي كانت تؤرق نومه.

وأخيرا انتهى المريض في حديثه إلى مظاهر التغير التدريجي الذي طرأ على حياته النفسية والجسمية، وكيف أن مخاوفه وقلقه أخذا يختفيا رويدا نتيجة استبصاره بنفسه، ومما يدور فيها من صراع. ولقد اختفت نتيجة هذا العلاج النفسي كل الآلام التي كان يشعر بها من قرحة المعدة، ولم تعد تعاوده على الإطلاق. وكان لا بد أن يوضح للقراء كيف أنهى العلاج، فذكر ما كان يلجأ إليه المعالج في نهاية الجلسات لكي يعوده على البعد عنه مددا تطول تدريجيا كلما قربت آخر جلسة علاجية، حتى يتعود الاعتماد على النفس ليصل به إلى مرحلة الفطام النفسي، حتى أمكن له في نهاية الأمر أن يواجه الحياة بمفرده، صحيحا من الناحيتين الجسمية والنفسية.

من كل هذا يتبين مدى الفائدة الكبيرة التي ستعود على المكتبة العربية في علم النفس بضم هذا الكتاب إليها. وعلى قراء علم النفس باقتنائه والاطلاع عليه.

د. مصطفى فهمي
أستاذ الصحة النفسية بكلية التربية
جامعة عين شمس
والمشرف على العيادة النفسية بها

وداعا.. للمرض النفسي

"ثمة خرافة من أوسع الخرافات انتشارا، تلك أن لكل إنسان صفاته الخاصة، المحددة المعالم.. فهو إما أن يكون حليما شغوفا أو قاسيا غليظ القلب، وإما أن يكون حكيما عاقلا أو أحمق بليدا، وإما أن يكون نشيطا ذا همة أو كسولا فاتر الهمة، وإما أن يكون واعيا حصيفا، أو خاملا عبيطا..

ولكن الواقع أن الناس ليسوا كذلك؛ فالفرد كالنهر يجري فيه الماء متدفقا كما في غيره من الأنهار، ولكن لكل نهر صفاته وأشكاله، ومميزاته فهو ضيق هنا وعريض هناك. تياره أسرع هنا وأبطأ هناك، وماؤه الآن صافيا، وكان قبل قليل عكرا، وإلى قبل لحظات كان باردا منعشا بينما تحولت برودته الآن إلى دفء..

وهذه هي الحال مع الناس، فكل فرد يحمل في أعماق نفسه نواة لكل صفة من الصفات الإنسانية، وأحيانا تكشف إحدى هذه الصفات عن وجودها. وفي أحيان أخرى تظهر غيرها، فيبدو المرء كما لو كان شخصا آخر، في حين أنه هو نفسه لم يتغير".

ليو تولستوي



الفصل الأول

فوق المضجع

"عندما نتذكر في صمت، فإننا نبحث عن اللغة المهمة التي نسيناها"

توماس ولفي

في يوم من أيام أكتوبر المشرقة البهيجة، لبضع سنوات خلت، كنت أرقد في استرخاء فوق المضجع الجلدي المريح في عيادة المحلل النفسي الدكتور "ماكسويل"، وتفكيري يجوب الآفاق في انتظار الجحيم القادم بعد ذاك..كانت التعليمات التي صدرت إلي من المحلل مختصرة نسبيا، فقد قال لي:

– اذكر بصوت عال كل شيء يخطر ببالك فور ظهوره، مهما يظهر لك أنه غير مناسب أو تافه.

وقد أكد دكتور ماكسويل أن الدقة والصراحة التامة في كل ما أقوله هما القاعدة الأولى في عملية التحليل النفسي، وقد هزني بعنف أنني أحسست أن هناك تشابها بين ما يجول في أعماقي، وبين ما كنت أشاهده مصورا فوق صفحات الجرائد الصفراء والمجلات الرخيصة من

قصص جنسية وجرائم قتل، واغتصاب نساء. وحينئذ أدركت أنني كنت أفكر بيني وبين نفسي فقط، ولم أذكر حكمة واحدة من تفكيري هذا للمحلل. وهذا يعني أنني خرقت القاعدة الأولى التي تتطلب مني "أن أذكر كل شيء بصوت مرتفع" وأن اذكره بدقة تامة وبالتفصيل، كما أنني خرقت القاعدة الثانية التي تصر على الصراحة والوصف الحر.

وعدت أسائل نفسي في همس: "هل من أجل هذا الإجراء الغريب أدفع خمسة عشر ريالا أجرا عن الجلسة الواحدة التي مداها ساعة؟" كنت غير مستريح. وبرهان ذلك ما كان يغمرني من عرق يتفصد من جبيني، وعنقي، وراحتي في غزارة!.. وقد ظننت أنني سوف ألقى المصير الذي انتهى إليه أمر السيدة الوقور الطيبة التي كانت تضرب على سبيل المزاح عن التحليل النفسي. وقد ظلت ثلاثة شهور كاملة تعالج نفسيا، حضرت فيها ستين جلسة تحليلية دون أن يظفر منها الطبيب بكلمة! وكانت تدفع الأجر الكبير دون تذكر، وتنصرف لتعود مرة أخرى، ويعود معها الصمت الرهيب وقد انتهى الأمر بالمحلل إلى خرق القاعدة التي تعلمها من أستاذه "فرويد" وهي: "لا ترغم مريضك أبدا على الكلام"، فقال لها في صوت كله رقة: "دعيني أساعدك.. في استخراج الكلمة التي ظلت تتصارع في أعماق نفسك طيلة شهور ثلاثة وأنت تحت العلاج"

وما لبثت السيدة أن أفرجت عن الكلمة! فقالت في صعوبة بالغة وهي تلهث: "بانكيك" (الدهان الذي تطلى به بشرة السيدات) ولم يكن

الطبيب النفسي المعالج يتوقع أبدا أن تكون هذه هي الكلمة التي تعاني منها السيدة هذا العناء النفساني الشديد!

وكنت أنا لم أتحدث بكلمة واحدة حتى هذه اللحظة.. وعادت التعليمات التي صدرت إلي ضمن أوامر الطبيب:

"إذا ما أردت أن تتحدث عن أحلامك؛ فسارع إلى إخباري بها، وأنت مخير بين أن تقوم بتدوين هذه الأحلام على الورق، أو الاحتفاظ بها في ذاكرتك حتى تعرضها علي.." ولكني – لسوء الحظ – لم أتمكن من تذكر أي حلم سابق مترابط الحلقات، مع أنني رأيت حلما أقرب إلى الكابوس، يدور حول الغرق ولكنني لم أستطع تذكره، وما أن وصلت بتفكيري إلى هذه النقطة انفجرت صائحا:

– دكتور ماكسويل.. إنني أعيش في جحيم من الشقاء.. في اللحظة التي حسبت فيها أنني أبعث إلى حالة من الرجاء بعد اليأس، بدأت أشعر بأن رواسب الماضي تطبق على عنقي صارخة كمخلوق ثائر مجنون!.. ليست لدي القدرة الكافية للإفراج عن روعي بكلمة أفضي بها إليك!. كما أنني – أنا كاره لأن أصارحك – غير مطمئن إليك.. نفسي ثائرة على إحساسي نحوك بالريبة، ونحو هذا العلاج النفسي الذي تحاول أن تخضعني لسيطرته!.. ومن الخير أن نعالج الحديث معا، ومناقشة حالتي النفسية كرجل لرجل، وليس كمريض الطبيب؛ فربما أتى هذا بنتيجة طيبة، بدلا من الاستمرار فيما هو – في رأيي – نوع من الحماقة، وقصر النظر، ولا جدوى منه أبدا..

فتكلم دكتور "ماكسويل" من مكانه خلفي، حيث كان يجلس بعيدا عن دائرة بصري.. وكانت لهجته في منتهى العذوبة والرقة والهدوء الذي يبعث على الطمأنينة.. قال:

– هذا قول صريح جميل.. لقد مر بك من الوقت ربع الساعة، ولكني وأنا أرقبك في صمت من وراء المضجع قد استطعت – دون أن تدري – أن أصل بك إلى نقطة البداية، أو نقطة الوثوب، ومنها سيكون في مقدورك أن تتبين همومك ومشاكلك.. هيا أطلعني على ما يصطرع في أعماق نفسك من خواطر تقلق بالك وتعكر صفاء حياتك.. إن هذا على درجة كبيرة من الأهمية، ويسرني أن تكون هذه هي البداية..

وما حدث بيني وبين المحلل النفسي في بقية هذه الجلسة، وفي الجلسات الثلاثمائة التالية لها – سأذكره في الصفحات التالية من هذا الكتاب، وهنا يجدر بي أن اذكر أن هذه العملية العجيبة، عملية العلاج، قد ساعدتني إلى حد بعيد على شفاء قرحتي المعدية المميتة، عن طريق تخفيفها لحدة توتراتي العصبية. كما قد أزال العلاج أيضا كثيرا من مشاكلي، ومتاعبي الشخصية التي عطلت حياتي الانفعالية سنين عديدة.

وقبل أن أنتقل إلى مرحلة الحوادث التي وقعت فعلا خلال فترة علاجي النفسي، دعني أصارحك بالسبب أو الأسباب التي دعت إلى هذا العلاج.. دعني أخبرك من أنا، وما اعترض سبيلي من حوادث كانت سابقة لأول "رقدة" لي على مضجع المحلل النفسي.

الفصل الثاني

لماذا لجأت إلى التحليل النفسي

"إنني اجتاز وادي شبح الموت"

المزمور الثالث والعشرون

أنا الآن في العام السادس بعد الثلاثين من عمري، وأنا كيمائي مهتم بأبحاث الكيمياء الصناعية وحين بدأت في تجربة التحليل النفسي، كنت قد مررت بحقبة مازالت عالقة بذاكرتي، حافلة بآلامي النفسية والجسمانية، وكان السبب الأول لعرض نفسي على محلل نفسي هو حدوث نزيف مفاجئ سببته قرحة في معدتي كنت قد أصبت بها وأنا في الخامسة والعشرين من عمري نتيجة الإجهاد المتواصل الذي كنت ابذله في إسراف لاستذكار دروسي كي أحصل على درجتي العلمية، وقد تحقق هدفي في الفوز بتفوق كبير، ونلت مرتبة الشرف في علم الكيمياء.

ولكن آلام القرحة كانت لي بالمرصاد، وظلت تعاودني في هجوم عنيف، كلما تناولت طعاما.. فانقلبت حياتي جحيما وأخذت أعاني من مرارة الآلام الجسدية، ومن توتر أعصابي..كانت الآلام الحادة تكاد تمزق الجزء العلوي من البطن، وتشتد أحيانا فتؤرقني، فكان لا بد لي من استشارة طبيب أخصائي في أمراض المعدة..

وزادت حالتي النفسية سوءا بسبب هذه القرحة اللعينة حتى أنني رفضت عرضا مغريا من إحدى الشركات الكيميائية، وطلبت مني أن أشغل وظيفة مدير المعامل بها، ولكن هيهات وأنا فريسة حالة جسمية قاسية، وحالة نفسية مدمرة!..

وبدأت أنفذ ما كنت أعترض عليه، وهو عرض نفسي على طبيب باطني كفء، وكان لي صديق مازال يدرس في كلية الطب، أفضيت إليه بمتاعبي، فبادر بنصحي أن أعرض نفسي على الأخصائي العالمي دكتور "جولد شميدت" وهو حجة في علاج أمراض المعدة، وقد عملت بمشورته، وقصدت عيادته على الفور. كان رجلا مهذبا، يزين رأسه تاج مهيب من الشعر الفضي، وقام بالكشف الدقيق الشامل علي، وكان يبدو التجهم في معالم وجهه وهو يؤدي وظيفته في دقة وأمانة مما أشعرني بخطورة حالتي، وبعد أن انتهى من فحصي، ومن الاطلاع على صور الأشعة التي التقطها فيما مضى لمعدتي، التفت إلي وصارحني قائلا:

– إنك مصاب بقرحة عند "فم" المعدة، وسأصف لك دواءً ناجحا يشفيك منها، وعليك أن تتناول الطعام الذي أقرره لك في نظام رتيب وفق ما أدونه في تذكرة العلاج، وعليك أن تعطي جسمك الراحة الكافية، وليس من الضروري إجراء عملية جراحية في الوقت الحاضر..

واتفقت معه على البدء في العلاج خلال أجازة أقضيها في المنزل، أما إذا استمر المرض معي دون تحسن، فمن الضروري أن أدخل أحد

المستشفيات للعلاج، إذ هناك العناية متوفرة للمرضى الذين في مثل حالتي.. وبعد أن قضيت ستة أسابيع تحت العلاج في البيت، أتناول الدواء الذي وصفه، وأطعم الغذاء الذي حدده سافرت إلى نيويورك حيث يقيم هو ليرى ما وصل إليه علاجي..

وبعد بضعة أسابيع غير نظام تغذيتي، فأضاف إلى قائمة طعامي الخفيف من اللبن ومشتقاته، كمية بسيطة من البيض المسلوق والثريد، ثم صرح لي أخيرا ببعض الأغذية الخفيفة. وقد أخذت أعراض المرض ومتاعبه تتضاءل نتيجة لمواظبتي على العلاج والطعام المقرر، إلا أنها لم تفارقني نهائيا؛ إذ كثيرا ما كانت تعاودني آلام القرحة، كما أنني أشعر في أوقات عديدة كما لو كانت في جوفي نيران متأججة تلهب مشاعري، وتسبب توتر أعصابي..

وذات يوم سبت، حدث لي نزيف حاد عقب عمل مرهق قمت به.. بدأ بغثيان شديد، وتقيأت كل ما في معدتي فكان القيء سائلا في لون الدم يمتزج يقطع متجمدة تثير الرعب في النفس، وتنبعث منها رائحة الموت!.. فلما رأتني صاحبة المسكن على هذه الحال المزعجة أسرعت إلى التليفون واتصلت بالدكتور "جولد شميدت" وألقت إليه بنبأ سوء حالتي، وسرعان ما وصلت عربة المستشفى ونقلتني إليه، وهناك أسعفت بسرعة، وما لبثت بعد الإسعاف أن رحت في سبات عميق..

وقد عرفت فيما بعد أن النزيف كان شديدا بالغ الخطورة أفقدني من الدم كمية كبيرة تبلغ "ربع الجالون"!.. وبعد أسابيع ثلاثة قضيتها في المستشفى، أمر الطبيب المعالج بأن أغادره لأعود إلى عملي، وقد زال الخطر عني، وعوفيت من أنيميا الدم، ونصحني وهو يودعني بألا أجازف بإرهاق نفسي بالعمل المضني..

وكان دكتور "شميدت" دائم التردد علي في المستشفى وكان يشترك في مباشرة علاجي، وكان القلق الشديد يبدو ظاهرا على ملامحه، لم يكن مطمئنا للعوارض التي اتسمت بها قرحة معدتي اللعينة! وقد اهتم أيضا بما كان يهيمن على نفسيتي من توتر عصبي، واضطرابات انفعالية.. ولما أخذت القوة تدب في جسدي بخطى وئيدة بعد السماح لي بالتغذية الكاملة، وأخذ المقويات اللازمة، طلب مني الطبيب أن أحاول استرجاع جميع الحوادث المزعجة المقلقة التي مرت بي خلال الشهور المنصرمة بقدر استطاعتي، وأردف طلبه بقوله مازحا:

–تعال إلى عيادتي، وهناك سنتحدث عما ينبغي أن نقوم به من أجل مرضك، وأحسب أن علينا أن نقوم ببعض الأبحاث البوليسية الخفية التي تفي بالغرض، أو تساعدنا في إيجاد الوسائل!.

وحدد لي الوقت الذي ألقاه فيه بعد بضعة أسابيع، ومن ثم أخذت أزاول عملي كالمعتاد، وفي الموعد المحدد التقينا في عيادته، وجلست إزاءه في هدوء وتحفظ كما يجلس الطالب أمام أستاذه.. وأخذ يلقي

دعاباته اللطيفة التي تبث المرح في النفوس، وقد استطاع بها أن يفرض علي جوا من السرور انطلقت فيه ضحكاتي تدوي في أرجاء القاعة، وصارحني بأنه سيقوم بتمثيل شخصية "شرلوك هولمز" لو قدمت له "موضوعا" يستطيع أن يبني عليه استنتاجاته وتجاربه، وقال لي أيضا أن رئيس مجلس إدارة الشركة التي أعمل بها قد اتصل به تليفونيا عندما كنت في المستشفى وأبدى استعداده لتقديم كل مساعدة، ثم أضاف إلى ذلك قوله:

– لقد قال أنك أخصائي بارع في حقل دراستك العلمية..

إن هذه الملاحظة التي أبداها رئيس مجلس إدارة الشركة مدحا في قدرتي، قد مست أخطر عقدي النفسية المكبوتة، وانطلق الشعور المكبوت في صراخ مدو قلت فيه:

– قال ذلك حقا؟!.. أحقا قال ذلك ابن الذئبة القذرة!. الجرو الأجرب؟.. إنه الآن يعترف بأنني كائن حي أعيش في هذا العالم!. إن في هذا اختلافا كبيرا.. عظيما.. عما كان يقوله عني منذ شهور ثلاثة عندما رقوا "ماكلينان" وتخطوني!. مكنوه من أن يثب فوق رأسي ويشغل ما كنت أستحق من وظيفة أعلى!.. الوظيفة التي أستحقها أنا!.. ولم يقل زعيمهم هذا القول عن قدرتي وكفاءتي إلا عندما تبين أنني في طريقي إلى القبر!.. إنهم السبب في هذه الحالة النفسية التي تسيطر على كياني!..

فابتسم دكتور "شميدت" وأخذ يهتز كما لو كان يسمع نغمات شجية، وانفرجت أسارير وجهه إذ أدرك أنني الآن في طريقي إلى الشفاء بعد هذا الانفجار الذي استنفد الكثير من غازات التوتر الخانقة التي كانت تملك علي مشاعري، وتخنق كل إحساس طيب في أعماق نفسي!.. وما لبث أن قال في لهجة جدية:

– أرجو ألا يهمك الأمر كثيرا.. أكثر مما يجب، حتى لا يؤثر هذا في تماثلك للشفاء..

ثم ما لبث أن أفهمني لماذا هيأ لي هذه المقابلة الطويلة في عيادته بأن قال:

– اصغ إلي.. لقد أمكنني أن أفهم تاريخ حياتك فهما تاما خلال الخمس سنوات الماضية وأتتبع سير مرضك.. إن قرحة المعدة التي تعاني منها كانت تنقلب من حالة إلى حالة.. من حالة شفاء إلى حالة مرض، كتقلبات سوق المال، ولكنها الآن قد مالت إلى ناحية السوء، وهي تزداد يوما عن يوم الدرجة أنها أصبحت تهدد حياتك.. من الممكن أن نقوم بعملية جراحية في معدتك، ولكن ليس من المضمون أن ينتج عنها شفاء تام، وعملية جراحية في المعدة من العمليات الخطرة التي لا يضمن نجاحها كثيرا..

ثم أطرق قليلا، ونزع نظارته، وظل يفكر، وأخيرا رفع رأسه وأخذ ينظر إلى بضع لحظات ثم قال:

– إن نصيحتي لك أن تجرى عمليه جراحية في أعصابك!.. وفي نفس الوقت داوم على علاج قرحة المعدة..

فألفيت نفسي انظر إليه مدهوشا، فبينما كنت أتوقع أنه قد انتهى إلى ترتيب إجراء عملية في المعدة، إذا به يشير في صراحة بأن تجرى هذه العملية في الأعصاب!.. كان هذا مثيرا لعجبي الشديد! فسألته:

– ما الذي يدور في رأسك يا دكتور؟.. ماذا تعني بقولك هذا؟..

فانتقل إلى لب الموضوع مباشرة وقال:

– أريد منك أن تستشير محللا نفسيا!..

فصحت:

– يا للجحيم يا دكتور شميدت! ماذا تعني بهذا القول؟ إن صحتي الجسدية وحالتي النفسية على ما يرام. كذلك طبيعتي الجنسية إلى عهد قريب لا تشوبها شائبة؛ فما معنى هذا التحليل النفسي الذي تشير به؟ ما هي الفائدة التي تتوقعها لي؟ أنا في غير حاجة إليه أبدا

فأخذ يلقي علي محاضرة طويلة عن التحليل النفسي، وقد كان موفقا إلى حد بعيد كما لو كان من علماء التحليل النفساني، وقد عرفت أخيرا أنه قد حلل على يدي المحلل النفسي الشهير دكتور "فرويد" في فيينا. ثم قال أنه اتفق مع المحلل النفساني "دكتور مكسويل" للبدء في

علاجي النفسي الذي لا بد منه.. ولما انتهى من مهمة إقناعي بالنزول على رأيه، حدد معي مقابلة بعد أسبوع ثم قال:

– إن حالتك تتطلب راحة طويلة تستجم فيها قبل التحليل النفسي، وقبل أن نفترق إلى حين، أرجو ألا تحرمني التمتع بفترة أخرى من الاهتمام بأمر مرضك. ربما لا تجد بأسا يا بني في الصفح عن إلحاحي أو إقحام نفسي في أمر من شئونك الخاصة، ولكنني رجل مسن في عمر أبيك، ولي ولد في مثل سنك، ومهنته هي نفس مهنتك أيضا، وهو يعمل الآن في إنجلترا. إن الأحداث الجسام التي شملت أوروبا قد عملت على تشتيت أسرتي تماما.

فعبرت له عن عميق شكري على اهتمامه بأمري، وعلى إسدائه النصائح الغالية، ودونت موعد لقائنا القادم في دفتر مذكراتي، ثم هززت يده في مصافحة صادقة مخلصة..

الفصل الثالث

فرار

"الخوف وليد الجهل"

هرمان ملفيل

إن اليوم السابق لليوم المحدد لمقابلة المحلل النفسي يكون عادة يوما مليئا بالسخف، تبعا للنظرة التي تنظر بها إليه، ولكن توصية دكتور "جولد شميدت" لا يمكن إغفالها بسهولة، رغم ما أثارته كلمة "التحليل النفسي" من أفكار غريبة في ذهني.. لقد كان معناها عندي على الدوام هو "الجنس"، وقد تبين لي فيما بعد أنني كنت مخطئا.. لقد كانت وجهة نظر "دكتور شميدت" عن التحليل النفسي مخالفة لوجهة نظري على طول الخط، وكان علي أن أحترم رأيه بلا تردد..

لم يسبق أن أثر أي طبيب في نفسي هذا التأثير الذي تغلغل في أعماق نفسي مثلما أثر هذا الطبيب النمساوي في نفسي، لقد كان معينا لا ينضب ماؤه من العلوم الطبية، وحتى علم الكيمياء كان حاصلا منه على قسط وافر مما أدهشني وأثار إعجابي..

وحدث قبل أن يتطرق معي إلى النقاش في التحليل النفسي بوقت قصير، أن اشترك معي في نقاش عن الكيمياء، حتى وصل في نقاشه إلى مياه عميقة من هذا العلم أثارت دهشتي!. لقد أوضح لي في تفسير بالغ الروعة، وهو يتكلم عن قرحة المعدة ومسبباتها، كيفية علاج القرحة عن طريق خلق حالة "تعادل" في أحماض المعدة، حتى يمكن أن تنشأ موازنة في الخصائص القلوية المنتشرة في كل خلايا الجسم!. وكان شرحه هذا مذهلا خلابا ذا تأثير بالغ..

ولكن برغم إعجابي بالرجل العالم النابغة، وبرغم حبي له، كنت غير مطمئن لفكرة "التحليل النفسي".. كيف يمكن الربط بين "التحليل" أو "الجنس" – كما كان اعتقادي الأول – وبين "قرحة المعدة"!.. وبالطبع لم تشبع محاضرة دكتور "جولد شميدت" القصيرة عن التحليل النفسي نهمي، ولم تكن فيها إجابة شاملة مقنعة عن أسئلتي.. إذن فعلي أن أبحث أنا بنفسي.. هذا ما فكرت فيه.. سأطلع على كتب "فرويد" وعلى غيرها حتى أصل إلى صميم هذا الموضوع بطريقة علمية..

وكان مشروع هذه الدراسة مشوقا ومثيرا، ولذا وجدت نفسي واقفا أمام "رف" تملؤه كتب "فرويد" وأبحاثه العلمية في إحدى قاعات مكتبة عامة، أبحث عن كتاب تهمني تلاوة ما فيه.. وعثرت على الكتاب، كان مرجعا في التحليل النفسي، وأخذت ركنا من القاعة، وجلست أقرأ الكتاب في إمعان واهتمام..

وجدت فيه الشيء الكثير عن "الجنس"، ولكن كان فيه تناقض، أو على الأقل، اختلاف ظاهر عما كنت أعتقده عن الجنس، فالحياة الجنسية في نظري لم تكن سوى إشباع جسماني للغريزة الجنسية وحتى آرائي عن الحب والجنس في الحياة الزوجية كانت غامضة ومختلطة، مع أني مدرك أهمية فصل العلاقات الإباحية عن الحياة الجنسية الزوجية.

وقد أدهشني أن أجد أن "فرويد" قد أطلق على الغريزة الجنسية لفظ "لبيدو" Libido . وقد وصفها بأنها كالتيار الكهربائي الذي أضاء حياة الفرد الداخلية العميقة كلها، ومن وقت إلى آخر يصل إلى درجة عالية من الوحدات الكهربائية (فولت) مما يستلزم حدوث تفريغ آلي لها. وكما أن السيارة لا تستطيع السير من غير المولد الكهربائي (الدينامو) والبطارية لكي تمدها بالتيار الكهربائي، فإن النفس الإنسانية لا تسير بسلام إذا حرمت من قوتها الجنسية الدافعة الاضطرارية. ورأيي عن الدافع الجنسي كان يختلف كثيرا عن وصف الدكتور فرويد العلمي لفظ "لبيدو" وعلى عكس ما ذكرت للدكتور "جولد شميدت" فإن حياتي الجنسية لم تكن مرضية تماما، فقد كانت مملة، روتينية، لا طعم لها.

لقد أذعنت لرأي فرويد عن فكرة "اللبيدو"، فقد تجاوبت مع نفسي باعتباري رجل علم لأن فرويد عبر عنها بلغة الطاقة و"الفولت" و"الأمبير"، والمقاومة، ولاسيما وقد تدربت أيضا على الأعمال الكهربائية في المعامل في ليالي السبت من كل أسبوع.

وقد لفت بصري عنوان آخر هو "القيمة الطبية للتحليل النفسي"، وكان ما أتوق إلى معرفته هو كيف يتحقق شفاء ناجع لقرحة المعدة دون عملية جراحية، وها هو كتاب أحسست أن فيه ما يشفي غليلي.. وكان مؤلفه دكتور "فرانز ألكسندر" مدير معهد التحليل النفسي بشيكاغو، ولعظيم دهشتي وجدت أنه، بالاشتراك مع زملائه قد وضعوا بحثا طريفا قيما عن مرض "قرحة المعدة" وعلاقته الوثيقة بالاضطرابات الانفعالية.

ولم أكن أتوقع أن يذكر "دكتور ألكسندر" مميزات النمط الانفعالي لشخصية المريض بالقرحة المعدية وهي –كما وصفها – : "حاجة طفلية شديدة إلى الاعتماد على الآخرين، والرغبة في العودة إلى حياة الرضيع الخالية من المسئولية حيث يعتني الوالدان بالطفل، ولا نرى هذا الاتجاه السلبي التواكلي في السلوك المكشوف، بل على العكس من ذلك نجد ظاهريا لدى معظم هؤلاء المرضى طموحا عنيفا، ونشاطا زائدا عن الحد. وهذه العلاقة الوثيقة بين هذه الميول السلبية وبين وظيفة المعدة ليست أمرا غريبا، إذ أن أول تجربة للطفل في إشباع ميوله السلبية وحاجته إلى الآخرين تحدث له مع تغذيته ورضاعته. وعلى ذلك فإن الرغبة في أن يطعمه الآخرون، قد تصبح منبها أو دافعا مزيفا يؤثر على وظيفة المعدة"

ولكن هذا الكلام لم يشبع رغبتي في المعرفة، وشعرت بتعب متزايد وتوتر بخصوص مشكلة الانفعال والجسم. وقد دهشت عندما عرفت أنني قرأت ثلاث ساعات كاملة، واستغرقت في القراءة حتى أعلن عن انتهاء موعد المكتبة..

وعدت إلى حجرتي متأثرا بكل هذه الأفكار الجديدة، وفي نفس الوقت كنت أود لو أنني لم أعرف شيئا عن التحليل النفسي مطلقا! فقد أثارني بعنف تذكر موعدي مع المحلل النفسي ظهر يوم الأربعاء، والوقت الآن مساء الأحد.

وفجأة قفزت من فوق مقعدي وأخذت أقلب صفحات دفتر مذكراتي لأرى ما دونت في صفحة يوم الثلاثاء القادم، وقد وجدت من حسن الحظ أن هناك موعدا لمقابلة مدير الجمعية الكيماوية الأمريكية بنيويورك بناء على طلبه، إذ قدم للجمعية بيان واف من المصادر العلمية يشيد بما قمت به من تجارب وبحوث قيمة في الحقل الكيمائي، فلم يعني إلا أن أصيح قائلا: "لا يمكن أن تفوتني هذه المقابلة بأي ثمن.. إن الدكتور "جولد شميدت" لا يمكن أن يوافق على أن أدع هذه الفرصة تمر دون انتهازها، وهي مرتبطة بعملي بوثاق مهم جدا"

وأخذت، وأنا مرتاح البال وفي أوج السرور، أعد نفسي للرحلة.. ومر المساء سريعا بهيجا.. استخرجت تذاكر الطائرة، ورتبت حجز مكان لي في أحد فنادق نيويورك، وكتبت رسالة طويلة إلى "مرجريت"، وهي صديقة خاصة عزيزة علي في نيويورك..

وكان يوما الاثنين والثلاثاء من الأيام التي أرهقني فيهما زحام العمل في المعمل، إذ كان علي أن أعد أعمالا تغطي عمل الأسبوع القادم جميعه، وأترك تنفيذها لمساعدي في المعمل، وهم كثيرون.. وكذا كتابة

تقرير مفصل للمدير العام عن أعمال المعمل، وعن البحوث التي قد تثار هناك في نيويورك أثناء اجتماعي القادم في الجمعية إذ من المرجح أن يناقشني فيها رئيس الجمعية وأنا أود أن أكون على استعداد كامل للنقاش..

ولما ركبت الطائرة، غمرني مرة أخرى سرور بالغ.. إن الرحلة بالطائرة تسبب لي دائما هذا السرور الغامر؛ لأن فيها إنعاشا للجسم، واسترخاءً كما لو كان المرء يقضي عطلة فوق رؤوس الجبال!.

وأخذت أفكر: كم تكون رحلة هنيئة بديعة لو استمرت الطائرة منزلقة عبر سماء "مانهاتن"، ثم تستمر عابرة المحيط الأطلسي الهائل ومن شاطئه الشرقي عبر أوروبا الغربية حتى عاصمة النمسا "فيينا".. يا للجحيم!.. ألم أنس بعد "فرويد" والتحليل النفسي؟!..

وفي نيويورك شغلني اجتماعي العلمي، واستنفد كل وقتي طيلة يومين، وفي صباح الجمعة سافرت إلى فيلادلفيا للاتفاق على تجهيز معمل خاص بمعدات كاملة مع شركة لصنع مثل هذه المعدات.. ومن هناك اتصلت بمرجريت تليفونيا، وحددت لها ميعادا للعشاء عقب عودتي من فيلادلفيا مساء الجمعة..

عادت الحياة تبتسم لي وأنا في طريق عودتي إلى نيويورك بالقطار، إذ أن لقاء "مرجريت" عادة ما يكون منبع سرور حقيقي وأنا في مثل هذه الرحلات، لأنها كانت لي مصدر ترفيه لا بد منه.. كانت إحدى "النوادر"

من المدرسات الجميلات في المعاهد العليا.. سمراء في لون الحنطة، تتدفق جاذبية وشبابا.. ومع هذه المظاهر الدالة على قوة المراس، كانت تحتفظ في روحها بأنوثة صارخة ورقة خلابة سابية.. وبجوار ذلك كانت تتجلى مهارتها وحذقها في مهنتها كمدرسة ذات ثقافة عالية.. كانت موضع حب، بل عبادة، من كل تلاميذها، رغم فارق الخمسة عشر عاما بينها وبينهم في السن.. حتى أنها عندما تزوجت وأعلنت أنها ستعيش في "مانهاتن" وضعوا شارة الحداد، وربطوا أعناقهم بالأربطة السوداء! بل تحايلوا حتى هبطوا براية المدرسة إلى نصف "الساري" حدادا في يوم رحيلها!..

واقتربت ساعة الرحيل، وتقدمت سائرا في الطريق الطويل الموصل إلى رصيف الطائرة، وإذ بي أشعر بألم مفاجئ.. أخذت أنفاسي تخرج في صعوبة بالغة كما لو كانت "مقطوعة"، وعجزت عن السير، وشعرت كما لو كان رعب غامر يقبض على كياني، وأخذ العرق البارد يتفصد من كل مسام جسمي، وتدافعت دقات قلبي في لغط مسموع، وعجبت كيف أن المارة لم يسمعوا هذه الدقات التي كانت تدوي في مسامعي!..

ومن حسن الحظ كان على مقربة "موزع" مشروبات مرطبة، فلم أتردد في الجلوس على مقعد قريب، ومددت يدي بقطعة نقود إلى ثقب "الموزع" وكانت ترتعش كيد مدمن الخمر!. وأخيرا حصلت على الشراب، وعقب تناوله شعرت بتحسن، ولبثت مرتاحا قرابة عشر دقائق خلتها أكثر من شهر كامل.. ولكن دقات قلبي أبطأت بعد أن كانت

تركض، وزال الألم ولكني كنت لا أزال مقطوع النفس، متوجسا مرتعدا كما لو كنت أتوقع شيئا لا أتبينه!.

وبعد أن بذلت مجهودا عنيفا استطعت أن أنهض وأنثر خطاي بطيئة وليدة في طريقي إلى مرسى الطائرة.. وشعرت براحة عندما جلست مرة ثانية، متهالكا فوق مقعد الطائرة المريح!.. لم أكن أخشى الطيران أبدا وإلا كنت عزوت إليه هذه الأعراض!.. إنه شيء آخر غير الطيران لا أدركه..

وسرعان ما انطلقت الطائرة في الجو في يسر ورخاء، وسرعان ما أخذ هدوء نفسي يعود إلي.. وشعرت بأنني في حالتي العادية!

إن ما حدث لي كان عبارة عن حلقات مسلسلة تروي قصة مليئة بالفزع لا يدرك مدى ما فيها من رعب إلا الذي يمر بمثلها.. كان الرعب يصوب ضرباته نحوي من جميع الجهات.. كان يكتنفني.. بل يلفني في أحضانه القاسية لفا، ويعصرني عصرا.. كان أشبه بشبح الموت يدب نحوي متسللا وئيد الخطى، ثم يلج كياني ويتمشى فيه جائلا، ويأخذ بتلابيبي حتى ليكاد يخمد أنفاسي، ويقيد مشاعري لدرجة الاختناق!

وقد تبادر إلى ذهني أنني ربما كنت أعاني من أعراض ذبحة صدرية أو أزمة قلبية من الأزمات الخطرة.. إن الانزعاج الحاد الذي يهاجم المرء يشبه إلى حد بعيد الإحساسات الناشئة عن الخوف أو الاختناق الذي

يصيب الغريق ويعاني منه الآلام الجسام قبل أن يموت بأسفكسيا الغرق!..

ولكن المرء في هذه الحالات يعرف من أية ناحية يهاجمه الخصم وما كنه ذلك العدو وما نوعه.. وهذا من شأنه – على الأقل – أن يخفف وطأة ذلك الرعب..

لقد كان انزعاجي في الواقع من القوة والألم كما لو كان يصوب ضربات مميتة ساحقة – آليا – نحو مقاومتي للتحليل النفسي وعدم رغبتي فيه...

فلما وصلت إلى مسكني اتصلت فورا تليفونيا بالدكتور "جولد شميدت" وأخبرته بما حدث لي في المطار في نيويورك وأنا عائد، فأدهشني بما أظهره نحوي من عطف، وبما كان يبدو في أسلوب كلامه من فهم كامل للحالة!. وقال: "إن مقاومة الرغبة في التحليل النفسي ورفض فكرته والفرار منه تتخذ شكلا أكثر خطورة من المرض نفسه"، ثم اقترح تحديد مقابلة أخرى مع دكتور "مكسويل"، وبعد وقت قليل اتصل بي وأخبرني أن الميعاد قد تحدد في منتصف السابعة من مساء يوم الاثنين التالي، وطلب مني أن أتوخى الدقة في الميعاد، لأن دكتور "مكسويل" رتب هذا الميعاد، وهو "ساعة" فراغه الوحيدة في راحة العشاء، وهو الموعد الوحيد الخالي لأسبوعين قادمين.. لقد تبين لي بوضوح أن دكتور مكسويل يود أن يعمل، وفي سرعة!

وبعد أن تحدث إلى "جولد شميدت"، أطلق ضحكة مدوية أزعجتني، ورفع صوته أكثر مما يجب، فبدت لهجته الألمانية واضحة أكثر مما في كلامه العادي وقال:

– أيها الشاب، بعد عامين من الآن ستكون قد انتهيت من علاجك النفسي على خير وجه، ودعني أخبرك كيف فررت أنا شخصيا من "فرويد" نفسه قبل أن يبدأ علاجي النفسي، ولكني لم أعد إلى الفرار بعد ذلك، وأرجو أن تكون الحال معك كذلك.

الفصل الرابع

حديث مع المحلل النفسي

"إنه صديق مخلص ذلك الذي يلطف من رغبات الناس ونزعاتهم الثائرة بمحاولة طرد الأفكار والاتجاهات الخطيرة من رؤوسهم"

جون كيتس

ألح علي الدكتور "جولد شميدت" في أن أحافظ على موعد مقابلتي للدكتور "مكسويل" بكل دقة.. لقد زالت مقاومتي للفكرة نهائيا خشية حدوث نوبة القلق لي مرة أخرى. وقد كان من نتيجة ذلك أنني وصلت إلى عيادة المحلل النفساني في الساعة السادسة والربع بدلا من الساعة السادسة والنصف! ولما احتوتني غرفة الانتظار، وجدت رقعة صغيرة من الورق عليها بضع كلمات: "سيلقاك الدكتور مكسويل فور فراغه"! فكان علي إذن أن أنتظر مطلب السكرتيرة مني، وكانت غرفة الانتظار أنيقة مؤثثة في بساطة وحسن اختيار، لا شك نتيجة الذوق البارع الذي يتمتع به من اختارها، وراعى تنسيق ألوانها الملفتة للأنظار، والتي ترتاح لها العيون.. وكان شعوري كذلك عندما دخلت عيادة الدكتور، وهي قاعة مكتبه الخاص، لقد لقيني أحسن لقاء في الموعد المحدد تماما، وهو منتصف السابعة.

كان دكتور مكسويل في الخمسين من عمره، رقيق العبارة، ناعم الأسلوب، غير مدع ولا متكلف، وكان صوته الهادئ المهذب لا يتناسب مع جسمه العملاق وطوله الفارع.. إنني أطول قليلا من ذوي القامات العادية، ومع ذلك فقد بدت راحتي كما لو كانت توارت في قبضة هذا العملاق وهو يهز يدي مرحبا!.. إن مظهره ومظهر مكتبه وما يحتوي عليه من أثاث قد أثار عجبي!

لقد كنت أتوقع أن أرى في أثاث مكتبه، وحسن تنسيقه، وتعبيره عن مظاهر النعمة والبذخ شيئا غامضا هادفا لا أدرك كنهه! وكانت – لأسباب عدة – قد سطعت في رأسي تخيلات كثيرة: قاعة رحبة رائعة ذات أضواء مستورة، وطنافس غالية، وصور زيتية ثمينة من المحتمل أن يكون بعضها لنساء عاريات رائعات الحسن، تشغل دون ريب ركنا ظاهرا من القاعة! وتصورت وجود "بيانو" يقبع في ركن قاعة ضخمة متسعة.. وتخيلت رجلا يجلس أمام المكتب.. رجلا طويل القامة، ضامر الجسم، له هيئة فنية خلابة تبدو واضحة في ملامح وجهه.. يزين شفته العليا شارب بديع منسق، وذقنه تكسوها لحية مدببة مهيبة!. وهذه اللحية التي تخيلتها كانت كأنها محفورة في خيالي على أنها حقيقة واقعة؛ فتصور كم كانت صدمتي عندما قابلت دكتور مكسويل.. كانت صدمة عنيفة الوقع.. داعية إلى القهقهة الهستيرية الصاخبة، لأنني وجدت دكتور مكسويل حليق الوجه تماما!! لا شارب له ولا لحية !..

والواقع أن القاعة كانت بسيطة الأثاث، وهو أثاث أخضر جميل ترتاح إليه العين، وترتاح عليه الأجسام!. وكان من البساطة بحيث لا يزيد على بضعة مقاعد قليلة مبثوثة في أجاء العيادة، وفي ركن من القاعة المضجع المريح.. أما الجدران فلم يكن معلق عليها سوى بعض الدبلومات العلمية.. وفي الركن الذي تخيلت أنه يحتوي على بضع صور لنساء عاريات، كانت صورة كبيرة لرجل واضح المعالم، له نظرات صارمة معبرة، كانت لقوتها والتعبيرات المتألقة فيها تصيب الناظر إليها بالرعب بحيث ترتد نظراته عنها!.. وقد عرفت فيما بعد أن هذه الصورة كانت لدكتور "سيجموند فرويد" العالم النفسي العظيم..

وكان دكتور مكسويل خلوا من أية سجية أو طبع يمكن لك أن تشينه في تصرفاته.. كانت ابتسامته عذبة مرحبة، وكان جسمه بادي الاسترخاء، وهو متهالك بين ذراعي مقعده الضخم أمام مكتبه.. وكانت أمامه على المكتب علبة من الكرتون مليئة بشطائر "الساندويتش"، وعلبة أخرى بالفطائر المصنوعة باللبن، والفاكهة والجبن، وقهوة في "ترموس"، وقال:

– لنتحدث وأنا أتناول طعامي؛ فليس لي من الوقت إلا هذه الساعة، إذ علي أن أحاضر في الثامنة بمجمع العلماء.

فشجعني أسلوب حديثه على التحدث إليه في حرية ودون تحفظ عن مشاكلي الحالية وانفعالاتي المضنية؛ فقال أنه يعرف مجمل خط سيري من الدكتور "شميدت" ولكنه يود مني أن أرسم له صورة دقيقة عن

توتراتي الانفعالية التي مرت بي في أطوار مختلفة وتجارب عدة؛ فشرحت له ما أراد بالتفصيل، ثم صارحته بعدم ارتياحي وخوفي من التحليل النفسي، وعن رحلتي إلى نيويورك..

وقد اهتم بوصفي لنوبة القلق التي تحدث لي، وأخذ يسألني في إسهاب عن مثل هذه الحالة فيما مضى من حياتي؛ فوثبت إلى ذهني صورة لم أكن أتوقعها وهي ذكرى لحظة انزعاج عابرة مرت بي في سن الرابعة عشرة وتتلخص في أنني دعيت إلى حفلة موسيقية وكان الداعي موسيقارا مشهورا من العازفين على "الكمان"، فلبيت الدعوة وحيدا، وهناك في الحفل شعرت بالوحيدة والاضطراب، والبلبلة، والغم الذي لا حد له!

وقد ساعدت الموسيقى على زيادة حالة الانزعاج لدي، وإذا بي واقع تحت تأثير رعب لا يقاوم ملك علي زمامي، ورغبة في أن أفر هاربا من مكان الحفل إلى مسكني!. ولبثت دقائق عديدة أحاول المقاومة مستميتا حتى استطعت في النهاية أن أسيطر على حالة الخوف، وبقيت في الحفل!..

وسألني دكتور مكسويل عن أحلامي، خصوصا التي تصدر عن كابوس أو تتصف بالقلق والانزعاج.. ثم سألني في اختصار عن – حياتي الجنسية – من حيث القدرة على الفعل الجنسي، والتمتع به، وعما إذا كان هناك أي شعور بالقلق متصل بذلك، ثم سأل أيضا عن رأيي في الزواج..

وبعد أن أصغى إلى تفصيل واف عن توترات أعصابي، وسماتي الشخصية البارزة، وثب فورا إلى هدفه المباشر وقال:

– إنك في حاجة إلى مساعدة تأتي عن طريق التحليل النفسي، ومن المحتمل أن يكون تحليلا شاملا...

ثم فسر مشورته بأنه من المعتاد أن يستغرق التحليل الأولي مدة أربعة أو ستة أسابيع، وبعدها يستطيع أن يقرر المحلل بعد حصوله على بيانات كافية، إذا كانت الحال تحتاج إلى تحليل نفسي شامل أم لا.. ثم قال في صراحة تامة أنه لا يستطيع أن يعد بإمكان النجاح في علاج قرحة المعدة التي هي أصل علتي.. ولكن من الممكن التنبؤ باحتمال حدوث تحسن حقيقي على أساس النتائج التي توصل إليها هو وزملاؤه من المحللين النفسيين. ثم أشار إلي أنه يوجد لدي الكثير من التوترات والمشاكل الانفعالية التي لم تحل بعد. ولو أمكن الوصول إلى حل لها، وأمكن تحقيق حياة انفعالية أكثر ثراء وهناء، فإن هذا يعني أن التحليل النفسي له فائدة عظيمة حتى ولو لم يشف قرحة معدتي، وقال لي في صراحة:

– إن العلاج النفسي الذي تحتاج إليه من النوع الذي قد تطول مدته، ويحتاج إلى تكاليف باهظة، وقد يطول أحيانا لسنوات، وهذا يتوقف على طاقة المريض المادية، فاسمح لي بأن أسألك ما هو مرتبك السنوي أو دخلك؟

– أتقاضى مرتبا سنويا قدره ستة آلاف ريالا.. وعمولة نظير تنازلي عن بعض اختراعات قدمتها لشركات، ما بين الخمسمائة ريال والألف.. أي ربما كان مجموع ما أحصل عليه سنويا قرابة سبعة آلاف دولارا..

فقال على الفور:

– إذن سوف أتقاضى منك عن الجلسة الواحدة لمدة ساعة خمسة عشر ريالا، ولا تزيد الجلسات عن خمس جلسات في الأسبوع..
– هذا معناه أن تتقاضى مني ثلاثمائة ريالا في الشهر، وهو أكثر من نصف إيرادي الشهري!. ألا تظن أنه أجر مرتفع؟

فصارحني بأنه أجر مناسب، خصوصا وأنه يقوم بعمله دون مساعد ولا يستطيع أن يعمل أكثر من ثماني ساعات في اليوم، ومع مرضى لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة لطول فترات الجلسات.. وذكر لي أن هناك غيره من المحللين النفسيين يتقاضى الواحد منهم خمسة ريالات ولكنه يقابل أكثر من خمسة من المرضى في اليوم الواحد! ثم كان كريما فعرض علي أن أدفع أتعابه مقسطة على خمس سنوات فسررت لهذا العرض وقبلت فورا..

وأعطاني بيانا بمواعيد الجلسات، وقد اتفقنا على أن اكتفي بجلسة واحدة أو جلستين في الأسبوع لبضعة أسابيع حتى يمكنه أن يحتجز لي ساعة من وقته يوميا ما عدا السبت والأحد.. وطلب إلي أن أصارحه بتاريخ حياتي منذ الصغر حتى هذا الوقت، قبل أن يبدأ علاجه، وسألني

عما إذا كان هناك ما يجول في خاطري وأرغب في السؤال عنه، فلم أزد على أن سألته سؤالا قد يكون سخيفا فقلت:

– دكتور مكسويل.. هل سأعرف نفسي على حقيقتها بعد انتهاء علاجي؟

فأخذت قهقهته تدوي ثم قال:

– دون شك ستعرف ذلك، وإنني أتعشم أن تشعر بالألفة والقرابة من نفسك الحقيقية.. لن تكون ذاتك غريبة عليك، وهذه النقطة هي الأساس في العلاج

ثم أوضح أن التحليل النفسي لا يقدم شيئا جديدا غريبا عن شخصية المريض، ولكن التحليل الناجح هو الذي يتيح للمريض فرصة التحقق من إمكانياته وقدراته إلى أقصى حدودها. ثم أضاف مبتسما:

– إنني أشك في أن ينتهي بك الأمر إلى أن تصبح عازفا على الكمان لا أخصائيا في الكيمياء.. والآن حان الوقت لتنصرف إذ أحتاج لبعض الوقت كي أعد مذكرات عن محاضرة الليلة، وموعدنا يوم الثلاثاء القادم في الرابعة مساء.. طاب ليلك!

وصافحته وغادرت العيادة مسرعا إلى مسكني.

الفصل الخامس

قصة حياتي

"فور أن تكون لك علاقة بالمخلوقات ستكون لك أيضا عاطفة نحوهم"

س . داي لويس

رسم لي دكتور مكسويل كيفية سرد تاريخ حياتي كما يحب هو أن يسمعه مني. إنه يريد أن يكون محتويا على الوقائع أو الحوادث الرئيسية، وتاريخا مختصرا عن طفولتي وما بعد الطفولة، وخصوصا ما اتصف خلالها بالخلق المنبوذ، أو الصفات السيئة أي موجزا لتاريخ حياتي يشبه ما نقرؤه في الكتب والمجلات عادة. إنه لا يريد تفسيرا للسلوك، أو تعمقا في مناقشة الاستجابات والأنماط الانفعالية، لأن كل ذلك سيفسر من تلقاء نفسه تدريجيا خلال جلسات التحليل النفسي فلم يكن هناك بد من رواية قصة حياتي كما هي دون تزويق أو بتر أو تغيير فقلت:

ولدت في مدينة "ميدل تاون"، وهي إحدى مدن الغرب الأوسط، كانت مدينة صناعية، ولكنها برزت كمركز تجاري مهم يعتبر المركز الرئيسي للتجارة وسط المزارع الشاسعة التي تحيط بتلك المدينة الصناعية التجارية.. وكان عدد سكان "ميدل تاون" عندما ولدت لا يزيد

على ثلاثين ألفا.. وقد هاجر والداي من أوروبا الشرقية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكانا في الثامنة عشرة عندما التقيا في إدارة شركة الملاحة في هامبورج وهما ينتظران استخراج تذاكر السفر.. وبعد أن وصلا إلى نيويورك أقام أبي في بيت ابن عم له، بينما أقامت أمي في بيت أخت لها أكبر منها. وفي نيويورك اشتغل أبي خياطا، وأمي خياطة في إحدى شركات الملابس الجاهزة.. وبعد عام تزوجا بعد تعارف وحب.. وكان إيجاد مسكن لهما في نيويورك هو مشكلة المشاكل بعد حياتهما القروية في أوروبا.. لقد بدت لهما مدينة نيويورك عائلة مخيفة، ولم يلبث أبي أن عاد إلى الغرب الأوسط ليعمل مع عمي التاجر الكبير تحت تأثير البطالة..

وكانت عائلة أبي تشتغل بالتجارة في أوروبا، يرعبها ويصيب أفرادها بالفزع أن يشتغل أحدهم عاملا أو صاحب مهنة غير التجارة. ولكن عمي كان رأيه أن أخاه – أبي – لا يصلح إلا ليقضي طول عمره في مصاف العمال، وكان أبي يكره عمي هذا، ولكنه اشتغل معه على مضض وأمكنه بعد بضع سنوات أن يوفر بعض النقود، وهذه مع نقود أخيه استخدمت في أعمال محلية، وبضربة من الحظ أثمرت هذه النقود وأتت بربح وافر. وقد أثرى والدي من وراء مجازفاته المالية، ولم يلبث أن صار سمسارا لا يشق له غبار، وصاحب مكتب تجاري كبير.. ولم يعترف أبدا بأن الحظ هو السبب في ثرائه، ولكن الجرأة والمثابرة والكفاية وانتهاز الفرص هي التي أنقذته من التردي في هوة الفقر وأنقذته من مصاف العمال من دائرة البيئة الكادحة الأخيرة..

وبعد مرور بضع سنوات كان أبي وعمي يعزون ضربة الحظ إلى قصة الكفاية الفائقة التي بذلت في نجاح في دنيا الأعمال والمال، ولما كبرت سمعت قصة ذكرتني بما يقوله أبي وعمي عن نجاحهما وها هي القصة: "كان هناك صرصاران كبيران يعيشان سويا في أحد أكوام السماد بإحدى المزارع.. وبحكم جوارهما توطدت الصداقة بينهما.. وفي يوم من الأيام حل ميعاد تسميد الأرض، فبدأ المزارع ينقل السماد إلى الحقول فلم يعد للحشرتين مكان، ولكن إحداهما تمكنت من الوصول إلى كوم آخر من السماد غير مطلوب، بينما سارعت الأخرى دون تريث أو تدبير إلى قناة ليس فيها إلا الوحل الذي تصنع منه الأواني الفخارية والخزفية، ولا شيء فيها يسد الرمق، فكاد الصرصار يموت من الجوع.. وخطر له أن ينتقل إلى حيث يجد صديقه الصرصار الثاني، وأقبل عليه فرحا مستبشرا فوجده قد ترك السماد الجديد وانتقل إلى ساق غليظ لشجرة جميز عتيقة فيه رزق وفير.. ونادى صديقه قائلا: "أهلا يا صديقي العزيز"، فتجاهله الصرصار الماكر وقال له في احتقار: "من أنت؟.. أنا لا أعرفك.. اغرب عن وجهي!" فأخذ يذكره بحيرتهما وصداقتهما القديمة وهما يعيشان في كومة السماد في حوش المزارع، فلم يرد عليه وأصر على تجاهله!.. فصاح الصرصار المتضور جوعا قائلا: "بحق الله أخبرني عن سر نجاحك" فرد عليه الصرصار الماكر قائلا: "ليس في الأمر سر وإنما هي مسألة عقل وشخصية" فقال الصرصار البائس: "لست أفهم ما تقول" قال: "أيها الغبي.. لو أعملت عقلك كما فعلت أنا، وكانت لك قوة شخصيتي لما انتقلت إلى مكان موحل لا تجد فيه طعاما غير

الوحل!. إن السر في العثور على مكان فيه رزق كثير يكمن وراء الوعي وقوة الشخصية!"

والآن أعود بك يا دكتور مكسويل إلى نشأتي. لقد بدأت حياتي في بيئة متوسطة.. كنت الابن الثالث لوالدي، ولي شقيقات خمس أصغر مني سنا. إن كل أحداث حياتي في فترة الخمس سنوات الأولى من عمري، كانت تدور كلها في نطاق البيت، ومع أمي، لأن أبي كان من النادر أن ألقاه، إذ يغادر البيت في ساعة مبكرة لعمله، ويعود من عمله في ساعة متأخرة وأنا نائم، ولم يكن يتمتع براحة أو نزهة إلا في يوم السبت من كل أسبوع، وهو الوقت الذي أراه فيه.. وكانت أمي كالنحلة.. شعلة عمل.. تقوم بكل أعمال البيت.. تنظيف، وطهي، وغسل ملابس، وصنع خبز أو كعك، وقطف فاكهة، وعصر عنب لصنع النبيذ، وشراء خضروات.. لقد كانت ربة بيت كاملة.. وتتحلى بطبية القلب، والعطف على الصغار.. وقد اعتادت أن تهيئ لي ولإخوتي بالترتيب الدوري فرصة رؤية الدنيا خارج جدران البيت، بأن تصحب أحد ثلاثتنا إلى سوق البلد لشراء اللحم والبقالة وغيرها مما يحتاج إليه البيت..

وقد سمعت من أمي أنني كنت برفقتها ذات يوم وكان عمري أربعة أعوام، ودخلت أحد محال البقالة لشراء بعض الأشياء وتركتني أمام الحانوت لأرى حركة الطريق، وأوصتني بعدم الانتقال من مكاني بالمرة... ولم تغب – كما قلت – أكثر من بضع دقائق، ولما خرجت لم تجدني!. فصرخت وولولت وانتهى الحال بها إلى إبلاغ رجال الشرطة، وبعد بحث

طويل عثروا علي واقفا عند رأس جسر تمر تحته القطارات أشاهد مرورها فرحا مستبشرا بينما كانت هي في حالة يرثى لها!

وعندما بلغت الخامسة من عمري، أخذتني إلى "روضة أطفال" على مسافة قصيرة من بيتنا، وتركتني في المدرسة مع ثلاثين طفلا من سني لا أعرف أحدا منهم.. فكانت الوجوه الجديدة الغريبة علي، وغرابة المدرسة مثار رعب هائل أصابني، فاندفعت إلى خارج قاعة الدراسة وأنا أصرخ، وهربت إلى بيتنا طالبا أمي وأنا أبكي في حرارة، ومر أسبوعان قبل أن تستطيع أمي أن ترشيني بقطع الحلوى، وتعدني بأنها ستبقى بجواري في المدرسة.. وقد أخبرت أمي المعلمة عن خجلي ورعبي، فما كان من المعلمة المدربة على معاملة الصغار، إلا أن جذبتني إلى ناحيتها في حنان الأم، وكانت تشبه أمي في ملامح الوجه والجسم.. طويلة، مفتولة العضلات، رشيقة، ممشوقة، شقراء، فتملكني شعور غريب، وخيل إلي أنني في بيتنا!.. وانتهى الأمر بي إلى أن أطلب من أمي العودة إلى البيت وتركي في المدرسة.. ولم تمض سوى أيام قليلة حتى كنت طفل المدرسة المدلل! خصوصا بعد أن تبين لها أنني بارع في عد الأرقام.. ولم يمض غير وقت قليل حتى كانت المعلمة تطلب مني العد حتى الآلاف.. ثم تدرجت في سرعة إلى إجراء تمارين أولية على الجمع، والطرح، والضرب.. ومن حسن الحظ أن هذه كانت آخر خطواتها معي، وإلا لتدرجت معي، وأنا في سن الخامسة إلى عمليات الجبر والحساب!

وإني أذكر أنني عندما وصلت إلى السنة الرابعة المدرسية كنت في الذروة، لأن إحدى المدرسات اهتمت بي اهتماما بالغا بشعور فياض من جانبها، فلم تلبث هذه العناية حتى جعلتني أول فرقتي، والطالب الأول في مرحلتي!.. ومن ثم ظللت محتفظا بالأولوية في جميع سني الدراسة.. في المرحلة الابتدائية ثم الثانوية، ثم العالية كنت أحصل على الدرجات النهائية في أغلب المواد، وساعدني نبوغي في الرياضيات والعلوم والتاريخ على أن أتقن لغات كثيرة، وأتعمق في الفنون، بعد أن امتدت بي الدراسة..

وقد غمر أمي فيض من الزهو والسرور لنجاحي الباهر هذا.. وكان لها دائما منبع سعادة وفخار! ولكنني شخصيا، كنت أحس بمشاعر متضاربة نحو مركزي هذا بين أقراني!.. على أنني كنت طبعا أقاسمها سعادتها وزهوها، وتهاني المدرسات والمدرسين والكثيرات من البنات.. كان هذا ظاهريا، ولكن الحقيقة أنني كنت غير مستريح لهذا التوفيق في الدراسة، لأنني كنت خلوا من كل تفوق رياضي.. كانت خبرتي الرياضية متوسطة وأنا أريدها ممتازة..

ولما وصلت إلى السنة السادسة الدراسية تحول الجو، وأخذ يبشر بأعاصير مقبلة، وقد حدث هذا بالفعل، إذ تعصب بعض الأولاد ضدي لغير ما سبب، وتحزب لي عدد قليل من الرفقاء، وتكونت منا زمرتان: زمرة قليلة العدد، هي التي أتزعمها أنا، وزمرة أكبر عددا يتزعمها من يدعى "ميك كاسيدي".. وفي ذات يوم هجمت علينا الزمرة المعادية

هجوما مفاجئا فلم نستطيع اختراق طريقنا إلى مساكننا إلا بعد أن نالوا منا، وحطموا رأس زميل لي، وركلوا آخر وضربوه ضربا مبرحا بعد أن ألقوه أرضا فأصيب بإصابات خطيرة، ومزقوا ملابسي، ولكنني كنت ملاكما ممتازا فاستطعت أن أثأر لنفسي ولزملائي وأن أخترق طريقي بعد ذلك بقوة قبضتي.. لقد مرت بنا ساعة رهيبة مروعة!

وفي اليوم التالي تجمع غلمان الزمرة وضموا إليهم غلمانا من فرق أخرى حتى صار عددهم خمسين تلميذا، كل أولاء أحاطوا بنا وراحوا يسبوننا، فلما شاهدوا "مس توتل" قادمة كفوا عن الصراخ وتفرقوا.. ولكن رئيسة المدرسة لم تفتها هذه الحركة واشتمت رائحة حوادث فسألت، ولما أخبرناها بالأمر تطوعت أن ترافقنا إلى حيث نسكن ولكننا كنا في أشد الخجل لأننا لم نقبل أبدا أن نكون تحت حماية سيدة، ولم يسعنا إلا أن نشكر لها تطوعها.

واذكر أنني صحت من خلفها وهي تسير: "ولا يهمك أمر هؤلاء الصغار. في مكنتي أن أصرع "ميك كاسيدي" زعيمهم بضربة ساحقة، ويدي الثانية مقيدة خلف ظهري!".. لقد كنت أبث الحماسة والشجاعة في أفئدة رفاقي لأنني كنت زعيمهم.. وعقب غياب ناظرة المدرسة عن منطقة الشجار برزت العصابة اللعينة مرة أخرى وقد نظمت صفوفها في حركة زحف رتيب، وأخذت الأحجار تطير في الهواء وتتساقط علينا كالمطر.. فقال الضعفاء منا في جزع: "سيفتكون بنا".. فنصحت بأن نسير في تشكيل ملاصق كطابور، وشرحت لهم كيف اعتزمت أن أتحدى

"ميك كاسيدي" وأنا واثق من صرعه – وفي الحق أنني كنت شاعرا في صميم نفسي أنه يفوقني قوة وبطشا – وكنت أشتم رائحة نكبة مقدمة علينا، وسرعان ما وصل الخصوم إلى مسافة قريبة منا ثم سدوا المنافذ علينا! فخطوت خطوة إلى الأمام وقلبي يدق، وعضلات ظهري في توتر واختلاج!. وصحت في "ميك" قائلا: "هيا نتقابل نيابة عن الجميع في صراع عادل" فهتف كل من في الساحة، وتقدم كل منا نحو الآخر وكانت خطة المبادأة قد اختمرت في رأسي، فانطلق ذراعي في ضربة مدمرة لم يكن يتوقعها فهوى إلى الأرض دامي الأنف! كانت ضربة شمالية موفقة، جعلته يعوي صارخا وهو ملقى على الأرض. ثم قلت له: "لقد ذكرت أن في إمكاني صرعك بيد واحدة والأخرى مقيدة خلف ظهري".. فانتهز رفاقي هذه الفرصة وصاحوا في شماتة وفرح قائلين "جبان!" وكان هو قد صار في حالة يرثى لها من الخوف وأخذ يستغيث، وغمر الخجل الخصوم الذين يتزعمهم، وهنا كانت الفرصة مواتية فاقتنصناها وانسللنا وهم مازالوا تحت تأثير الدهشة والخجل، وأسرعنا إلى بيوتنا!..

وكان في اليوم التالي فصل الخطاب للقضاء على الفرائس الضعيفة القليلة العدد، فأعد الخصوم عدتهم وتربصوا بنا للفتك منتقمين، وكم كانت دهشتنا عظيمة عندما وجدنا ضمن فرقتنا الضئيلة ثلاثة من الشبان الأقوياء من المرحلة الثامنة، جاءوا لمساعدتنا، وكانوا مشهورين بالبطش، وأطلق عليهم اسم "الفرسان الثلاثة"، وكانوا محبوبين جدا من تلاميذ المراحل الأصغر. وتقدم الثلاثة نحو المتآمرين في تحفز، فاختتلت صفوفهم وتفرقوا في خوف بالغ ليختفوا.. أما "ميك" فقد هاجمه

"الفرسان الثلاثة" وقبضوا عليه، ثم جردوه من سرواله وتركوه شبه عاري تنكيلا به وسخرية منه!..

***

وكانت أيام المراهقة هي أصعب أيام حياتي، لأنني عندما بلغت من العمر العام الثاني عشر بدت نزعة التمرد على أي سيطرة، حتى سيطرة والدي، تظهر جليا في تصرفاتي!

وفاجأني دكتور "مكسويل" بسؤالي عن الدافع الذي وجهني إلى دراسة الكيمياء لأكون عالما كيميائيا فذا؛ فرويت له أنني كنت صديقا لأحد زملائي في المدرسة، وكان أبوه كيميائيا كبيرا، فكان التقائي به طبيعيا وأنا في صحبة الابن والزميل "بيل"، وكان رجلا طيبا يحبني كابنه، ويعطف علي، وكثيرا ما كان يدعونا لمرافقته في رحلات صيد السمك، ويوفر لي كابنه حياة كلها حرية لا قيود فيها كما لو كنا رجالا، مما أشعرنا بأن لنا شخصية كاملة ولم نعد بعد غلمانا في طور المراهقة..

كانت الحياة التي وفرها لنا حياة غريبة علي، لم أجدها من والدي نفسه، وقد راقت في عيني، وأصبحت أنظر إلى الرجل كمثال نموذجي، وملت بكليتي إلى الكيمياء، وبرعت فيها، حتى كانت إجابتي في الامتحان السنوي بالغة الذروة، فنلت جائزة التفوق..

وفي المدرسة العليا، توالت انتصاراتي العلمية بجوار جائزتي في الكيمياء، وبعد ذلك حصلت على امتياز التفوق في العلوم العامة، وكنت خطيب حفلة الوداع في آخر السنة، ولكن مع الأسف ظللت في المتوسط في الألعاب الرياضية لا أتحول عن مركزي، وإن كان يخفف عني ما أعوضه عن ذلك بتفوقي المكتسح في العلوم، حتى كاد يقلل من أهمية الرياضة البدنية لي واحتياجي إليها..

وكنت أنمو جسمانيا بسرعة، ولدي النقود الكافية لشراء الملابس الأنيقة الغالية حتى صرت في وقت قصير محبوب الفتيات..

وتطورت الحال معي من عشق المراهقة إلى حب جارف، فتورطت في حب فتاة أكبر مني سنا، كانت تستقل نفس الحافلة التي تنقلنا إلى المدرسة الثانوية، وكانت في أول الأمر تسر إذ تترك لي حمل كتبها عنها أو انتظارها أمام فصلها عند الخروج لنتصرف سويا، ثم بعد ذلك تطورت الحال بيننا فقبلت أن أكون صديقها الملازم برغم فارق السن، حيث أننا كنا نمارس لعبة التنس معا.

وفي ذات يوم – بعد مباراة رابحة – كنت بجوارها في سدة الباب للراحة، وفي حالة استرخاء تام عندما خرج أبوها – ولم يكن سبق أن التقيت به – ونحن على هذا الوضع البرئ، فتنهرني في غلظة، فبكت "ماري" في مرارة، وغادرت مكاني في سكون كاظما غضبي الذي كان

يملأ صدري.. ولكني استطعت السيطرة عليه رغم رغبتي القوية في ضرب الرجل!

وبعد أن مرت بضع سنوات على هذا الموقف المؤلم، قررت أن أكتفي بالبحث عن فتاة لأتخذها زوجة متى اعتزمت الزواج، توفيرا لآلامي وحفظا لكرامتي..

ولما دخلت الكلية التي تبعد خمسين ميلا عن "ميدل تاون" غمرني السرور لأنني أيقنت أنني سوف أعيش في مدينة كبيرة حيث أجد المسارح الفخمة، ودور الموسيقى العالمية، والفنون الجميلة كما أجد هناك الوسط المثقف والبيئة المهذبة.. وحيث يسهل هناك التعرف بفتيات ونساء فاتنات أجد بينهن المتع والترفيه، والجمال والحب وما إلى ذلك من حياة اللهو والمرح التي حرمت منها طويلا منذ المراهقة حتى هذه السن!

***

ولما وصلت إلى هذه النقطة، كان الوقت قد أزف لإنهاء الجلسة قال دكتور مكسويل:

– يكفي هذا.. لقد كان فيما قلته الكفاية.. وغدا نبدأ في سماع تاريخ حياتك منذ لحظة دخولك الجامعة.

الفصل السادس

الإفصاح

"إننا نحس بالرعب والرهبة يتمشيان في نفوسنا عندما نقدم على البحث عما يختفي في طيات عقولنا"

وليم وردزوورث

تتضمن المتداعيات الحرة الطليقة كل المادة الخام الرئيسية في التحليل النفسي، ويعد فن التداعي الحر free Association بسيطا للغاية، ففي بداية كل جلسة كنت أقضي جزءًا من الوقت في تحية المحلل، وفي التعليق على الطقس. ثم أتمدد على المضجع. وقد شرح لي دكتور مكسويل قواعد التداعي الحر من قبل، ولكنه لا يفتأ بين حين وآخر يكرر إحدى هذه القواعد "قل كل شيء يخطر ببالك تاما وكاملا مهما تكن قيمته في نظرك. لا تحاول أن تخفي شيئا أو تحجزه عني" كما طلب مني أيضا أن أذكر له أي تغيرات مزاجية تطرأ علي كأن أقول مثلا "إنني أشعر بالغضب" أو "لقد كنت متوتر الأعصاب وبدأت أحس بالعرق قبل أن ألفظ هذه الكلمات"

ولما بدأت جلسات التحليل النفسي، اكتشفت أنه من الصعب جد اتباع القاعدة الأساسية للتداعي الحر – أي التقرير الكامل. كنت أجد

صعوبة في أن أقرر الحوادث كما وقعت تقريرا شاملا وصريحا.. كنت أود أن أنسق هذا التقرير وأصفيه ثم بعد ذلك أختار أهم عباراته وفق تقديري لها.. أختار العبارات المؤثرة أو المشوقة.. أما الملاحظات المتسمة بالغضب، أو الأفكار التافهة التي تزول كزبد الماء قبل أن تتصل بالإدراك والحس، فهذه كنت أمر بها كأشياء تافهة لا تستحق أن يلتفت إليها لضآلة قيمتها فيما ظننت..

وفي بدء علاجي أصبت بانزعاج قاس لأنني اكتشفت أثناء حديث عابر عن بحث كيميائي مع "الدكتور مكسويل" أن الكثير من الأفكار التي سأذكرها فيما بعد كانت تلح علي إلحاحا شديدا في أن اسمح لها بأن تطفو في عقلي، وها هي:

"إن أبي كاذب دعي!.. أريد أن أجمع مليون دولارا بل بليونا!.. إن دكتور مكسويل يرهقني بالأجر الفاحش الذي يطلبه!"

وانقضت جلسات قبل أن أدرك أهمية هذه الأفكار الوحشية الخارجة عن اللياقة والعرف والأدب، ولكن بمرور الوقت نجحت في جمع مثل هذه الأفكار المرة ودفعها في مجرى واحد مشترك.. وكان دكتور مكسويل يقول لي في لهجة جديدة مؤكدة مطمئنة:

"لا تحاول أن تكون منطقيا.. لست هنا عالما كيمائيا ضليعا ولكنك إنسان له مشاكل متصلة بالعواطف والإحساسات.. إن الانفعالات ليست من المنطق في شيء كما هي الحال في المعادلات

الكيميائية.. اترك لانفعالاتك حرية التعبير عن نفسها، ولا تقف في طريق تقدمها.. سيكون اعتراضنا لها نحن فيما بعد متى حان موعد الاعتراض والوقوف في الطريق"

وبدت مشكلة أخرى في أول الأمر، كنت ألبث صامتا لبعض الوقت وأنا في حالة استلقاء.. وكان الدكتور مكسويل يصبر على الصمت لمدة خمس عشرة دقيقة ثم يشجعني على التحدث ويحثني، فأشعر بعدم قدرتي على الكلام، ولا أجد في نفسي قابلية للتحدث!

ولما تمرست بمضي الوقت على استرجاع الجملة التي تتسبب في توقفي عن الكلام وتبنيها، بمساعدة دكتور مكسويل، كنت أعود إلى التحدث مرة أخرى!. وخلال الأيام الأولى من التحليل كنت أشعر نحو دكتور مكسويل بأحاسيس طيبة في أوقات خاصة يعقبها شعور بالكره والعداء الذي لا حد له! فأبدأ بالقول:

"إنني أشعر شعورا طيبا يا دكتور مكسويل نحو الطريقة المثلى التي تقوم بها في علاجي.. إنك طبيب مدهش رائع.. وأنا واثق من شفائي على يديك"..

ولكن يحدث فجأة أن تقحم الكلمات التالية نفسها علي وتتدافع من فمي "ولذا فأنا.. أود أن.. أود أن ألمس ردفيك!"

ومن ثم أشعر بتوتر في أعصابي ويغمرني عرق كثير، ولا أجد في نفسي قوة على النطق بكلمة واحدة!!. ثم تزدحم الأفكار والخواطر في رأسي كما لو كانت متشابكة فأقول في حالة أحسب أنها لا شعورية "لا أجد ما يشجعني على توقع الشفاء.. إنني شاعر بأن حالتي أسوأ مما كانت عليه!. إن قرحة معدتي تؤلمني، وترفس كالجواد المشاكس الحرون.. إن هذا العلاج كذبة مضايقة للنفس.. إنني أود أن...".. ثم تراودني فكرة وصف دكتور "جولد شميدت" بأنه رجل مخنث.. لا رجولة عنده.. فأمسك عن إيرادها في كلمات لا أستطيع أن أقولها. وأعود إلى الصمت!

وها هي بعض نماذج من الانفعالات والأفكار التي كانت تتزاحم في رأسي وكنت أفضي بها صراحة وقحة وجرأة تدعو إلى الدهشة: "يظهر أنني أضيع وقتي ونقودي يا دكتور مكسويل.. إن رأسي مفعم بالكثير من الذكريات عن امرأة كنت أعرفها.. كانت لي بها علاقة.. وقد تسببت في إغضابي.. القاهرة! الفاجرة!. ما هو السبب الذي جعل الغلام لا يفرق موضعه من ظهر السفينة المحترق؟ لقد ادعت أنني قلت أن السيدة الحقة هي التي تأتي الأمر ولكنها تقول أنها لم تشعر بأية متعة وهي تأتيه! لعنة الله على المنافقات اللاتي كل أفعالهن مصانعة ورياء!"

* * *

"أنا أفكر في البروفسور "لوتون".. إنه يشبه أبي.. لقد رأيته أمس في وضوح وهو يهبط من فوق التل أمامي مباشرة.. لقد ثارت أعصابي عند رؤيته، وشعرت بتوتر شديد، وقد شربت قليلا من الماء من نافورة هناك، ولبثت أفكر، أناجي نفسي على الأصح "ماذا فعلت؟. لقد قتلت رجلا!. ذات مرة.. هل فعلت هذا حقا؟. هذا غير حقيقي".. إن فلورنس أنثى عذبة جميلة، كان يجب أن أتخذها زوجة.. هذا غباء مني وحماقة!

أنا مازلت راغبا في الزواج من عذراء بتول.. لماذا بحق جهنم نتكلم هكذا.. في توسع؟.. أنا الآن فوق ظهر باخرة أقضي عطلة الأسبوع في نزهة بحرية مع فلورنس.. لشد ما أكره استعمال الأسماء المزيفة.. الألقاب الجوفاء.. لقد شعرت بتوتر في أعصابي عندما قابلت بعض الناس من بلدتي "ميدل تاون"

* * *

وقد أوضح دكتور مكسويل لي مرارا أن الحالة اللاشعورية التي تنتابني من شأنها أن تغذي دوافع ونزعات العدوان والكره والخصومة أو الجنس أو مظاهر الطفولة أو الحاجة الشديدة إلى من أنشد عونه ودفاعه عني أو محبته لي.. وعدت أقول وأنا في حالة لا شعورية:

"إني أفكر في مخزن أطعمة.. كان في المنزل الأول الذي كنا نسكن فيه، ولكن.. أوه. أجد صعوبة في أن أستمر في الكلام.. لقد غمرني العرق وتوترت أعصابي"

فقال الدكتور مكسويل في هدوء ورقة:

– حاول أن تستمر، ولكن إذا كان هذا يسبب لك الألم فلا داعي للضغط على نفسك..

واستطردت أقول:

"إنه مظلم.. رائحة عفوية من البلل.. صندوق من التفاح وتفوح رائحة عصير التفاح.. لقد وضعت يدي في الصندوق فاصطدمت بتفاح معطوب عفن.. وها هو ذا الرجل العجوز يحمل البلطة وبقية أدواته.. اللعنة عليه.. لقد هم بغلق باب المخزن علي فلا أستطيع الخروج.. أوه.. هذه نار.. إنه يهم بإشعال النار.. لقد صعد "جيك"، وها هو ذا "ميك" يهبط.. ها مخزن اللحوم.. وها فخذ من "السلامي".. إني أشتم رائحة المخلل.. إنه مخلل مسز "بيرون" من الطماطم"

* * *

كنت أول ما بدأت التحليل النفسي لا أهتم ببعض الأفكار الخاصة وأنتخب وأنظم غيرها من الخواطر والأفكار.. ولكن بعد مران لمدة شهور ثلاثة أخذت – وهذا عجب! – أمسك بالكلمات النابية الوحشة وأنقي العبارات الفاحشة التي كانت قبل ذلك تقطع حديثي وتعجزني عن الكلام لفحشها، وقحة ألفاظها.. وكانت هذه المترابطات السيئة المختفية في أعماقي أكثر فائدة لي في علاجي – كما دل هذا – أكثر

من الكلمات ذات الأسلوب المهذب التي تتحدث عن الحوادث العادية الجارية..

فكان الدكتور مكسويل يقول لي مثلا عندما ألفظ مثل هذه الكلمات الوقحة النابية المعبرة عن رغبتي في تشويه سمعة دكتور "جولد شميدت" – دون وعي – بأن أصفه بأنه خنثى!. كان يقول:

"إن هذا القول الذي تقوله وأنت في حالة لا شعورية ليس من التهذيب في شيء خصوصا وأنت تتكلم عن رجل له فضل عليك مثل دكتور شميدت.. ولكن الواقع أن التشنيع به ووصفه بأنه مخنث أو خصي ليس هدفك الحقيقي من هذه "المترابطات" إن هذه الكلمات الوقحة الفاحشة ما هي إلا الكلمات التي يستخدمها عقلك الباطن في التعبير عن شديد غضبك!."

ثم يقول: "لماذا هذا الغضب الشديد؟. هذا هو السؤال الحقيقي.. لقد تبين لي من الأفكار والأحلام التي تلفك في وشاح سميك، والتي ظهرت في أفق حياتك حديثا، أنك مستاء ومتمرد على سيطرة دكتور جولد شميدت عليك، كطبيب تثق به.. إنه يدير دفة زورقك في الحياة، ولكنك تود أن تكون الربان لتسير ذلك الزورق بنفسك.. ولكنه لا يقحم نفسه عليك أبدا ولا يتدخل في خطة سيرك إلا بقدر وفي بعض الحالات الخاصة.. ومع ذلك فأنت متمرد على هذا الوضع أيضا!.. ومن هنا جاءت الكراهية، ولكن من المحتمل أن يكون لها وجه آخر، ناحية

أخرى، ربما كانت موجهة بطريقة معوجة منحرفة إلى طبيب آخر، إلي أنا.. لأنك في الغالب وأنت تحت تأثير دوافعك اللا شعورية تود أن تؤذيني بهذا السلوك العدواني الشديد الذي يمليه عليك التأزم النفسي.. ولا سبب لذلك إلا أنني –كما تعتقد – أرغمك على إجراء هذا التحليل النفسي الطويل المدى، الباهظ الأجر، المؤلم لك"

عندما وصل دكتور مكسويل في حديثه إلى هذه النقطة استرجعت حلقة ناقصة كنت أتفقدها عبثا.. نسيت أن أذكر للدكتور مكسويل أنني في تحدثي إليه أغفلت، أو غاب عني أن أوضح له مشهدا شاردا تحليليا، وهو رؤيتي له في جنازة – حقيقية أو وهمية لست أدري – وعندما ذكرت له هذا اقتنع بأن كل شيء مما قلت يبدو متوافقا متناسقا مع الصورة التي تنم عن الكره الذي أكنه له وللتحليل النفسي!

ولقد تبين لي بعد هذا التفسير أن هذا القول معقول وله معنى أيضا، وقد تعلمت منه شيئا عن حدة المقاومة الدفينة في أعماق مشاعري نحو التحليل النفسي! وعندما وصلت إلى المرحلة التي تتخللها فترات قليلة من الصمت أثناء التحليل – بمعنى أنني أفضيت بكل ما تنطوي عليه نفسي – بدأت أشعر بالتقدم. ولم يكن مسموحا لي بأن تتشتت ذاكرتي. كما أن السجاير كانت ممنوعة علي خشية أن استغل الثواني القليلة التي يستغرقها إشعال السيجارة في الهروب من الكلمات التي تهددني ولا أستريح لذكرها.. وقد تركت لي حرية اختيار طريقة التداعي أو ذكر أحلامي. وقد كان دكتور مكسويل يسألني عن أحلامي

من وقت إلى آخر، لأن الأحلام عامل مساعد في تدفق المتداعيات الحرة الطليقة.

***

لو ترك للمريض الذي يعالج نفسيا أمر التحدث في حرية مطلقة، لأمكن أن يضرب الرقم القياسي في الثرثرة التي قد تصل إلى مليون كلمة في الجلسة الواحدة، وقد يكون الأسلوب ممزقا مهلهل الجمل، لا رابط بينها، ولكن ندر أن تكون غير مفهومة.. بل الأغلبية الساحقة منها لها المعنى الواضح والرأي الهادئ، والواقع أن كل ذلك يستخدم لتغطية مزاج المريض وتوتراته، وعدائه وكل ما يخشى التعبير عنه في إحدى اللحظات. ولما قطعت الشهور الأولى في العلاج، كان من الواضح أنني تمرست على طريقة التداعي الحر أي التحدث عن خواطري ونوازعي ودوافعي.. وقد تعلمت أن أروي ما أريد في أسلوب خاص كما لو كنت "وسيطا" تحت تأثير غيبوبة التنويم، فأقول مثلا:

"أشعر أنني في حالة طيبة اليوم. العلم سوف يتقدم.. لقد تم إنجاز مشروعنا.. الرئيس يشعر بغبطة وسرور لما وصلت إليه أبحاثنا. وفي اعتقادي أننا ظفرنا بإنجاز بحث قيم مهم في عالم الكيمياء، وأنا شخصيا أحس أنني لعبت دورا مهما.. لي فضل كبير على العالم"

وتوقفت عن الكلام قليلا، ولكني شعرت بدافع داخلي يعيدني إلى حالة الثرثرة في إرغام، فاستطردت أقول: "دكتور مكسويل.. هناك أفكار

غريبة في رأسي تتحفز للبروز.. إني أقاومها، ولكنها تحاول في عربدة وشدة أن تقتحم خط مقاومتي الأول.. ها هي قد تغلبت علي واقتحمت علي صمتي.. أريد ملحا. أنا مشتاق في نهم إلى امتلاك مليون دولار!. ولكن هذه أمنية يجب ألا يفكر فيها رجل بحاثة مثلي.. فما هو رأيك؟". فقال:

– دعني أفكر في الأمر معك قليلا.. هل كانت رغبتك هذه قديمة أم وليدة بعض الحوادث التي مرت بك في اليقظة أو أحلام اليقظة وأحلام الليل؟

– بل كانت مجرد خواطر راودتني منذ أيام قليلة.. وكانت تلك الخواطر محددة الهدف.. وهو الحصول على ثروة بأي سبيل!

فهز دكتور مكسويل رأسه، وقبل أن يقول شيئا اندفعت أقول:

– إنني أشعر بالحسد نحو والدي.. والدي الثري.. وأحسد رئيسي الذي يتمتع بأبهة المنصب ورغد العيش!. لقد قمت بزيارة ذلك الرئيس في الخريف الماضي.. إنه يملك بحيرة خاصة يصيد منها الأسماك والطيور المائية هو وأصدقاؤه.. إنه في نعمة سابغة، وسعادة مقيمة!. لقد حلمت.. نعم حلمت ليلة أمس بأنني اخترعت آلة لصنع "السوستات" التي تستعمل في صناعة الحقائب وحافظات النقود والملابس.. ولكن أحدهم سرق هذا الاختراع فأقمت عليه دعوى مطالبا بعشرة ملايين من الدولارات، ومنذ ذلك الوقت وأنا أحلم بالثروة طيلة أيام عديدة..

فعاد دكتور مكسويل إلى الحديث قائلا:

– أحسب أنه قد حان الوقت لأن تدرك أنه في غير استطاعتك أن تواصل إنتاجك كباحث منتج، إذا كنت تستقطع من وقتك الثمين جزءا كبيرا، ومن عصير نشاطك قسطا وافرا كرجل أعمال.. ألا يدهشك أن تعرف أن هذه ظاهرة دلت على أن عقلك الباطن مشغول بتكوين ثروة بدلا من التبحر في العلوم التي خلقت لها؟ ولكن أرجوك أن تستمر.. وسنطرق هذا البحث فيما بعد..

إن المترابطات في هذه الجلسة العلاجية الرمزية لها الأسبقية على الحوادث التي تأتي عفو اللحظة في سياق الحديث الدارج، وفي هذه الفترة القصيرة نسبيا (ساعة واحدة) كثيرا ما تتغير طبقة الصوت وأسلوبه، فمرة أكون غاضبا فيدوي صوتي صاخبا مرتفعا.. ومرة تتضح فيه مرارة الأسف والحزن أو الاستغاثة واستجداء الشفقة، وقد وضح هذا دكتور مكسويل عندما لخص تحليله في نهاية الجلسة.. وكطلب الدكتور مكسويل أخذت أتحدث:

– هنا شيء لا أود أن أراه.. أكره النظر إليه.. أن لون طلاء جدران عيادتك يثير في نفسي الضيق والضجر.. أشعر بتوتر أود أن أبارح هذا المكان حالا.. سحقا لأولئك الملاعين في "ميدل تاون".. أحسب أنني راغب في الالتحاق بالسلاح البحري حتى أستطيع أن أجوب أنحاء العالم

لم تكن هذه الكلمات في مجموعها ذات معان خاصة، وإنما تكمن أهميتها وراء النغمة الغاضبة الصاخبة التي تشترك فيها، وهي في الواقع لم تظهر إلا لتمثل شعوري برد الفعل الذي أحدثه اقتراح دكتور مكسويل بشأن تركي الاهتمام بمسألة المال.. إذ سارعت – أو بالأصح سارع شخصي، وهو في حالة شعور غير مكتمل "نصف متيقظ" – بالاحتجاج على مبضع الطبيب الذي هدد بالكشف عن مكمن أهم الدوافع النفسية التي تهيمن على أعصابي!

وكلما أوغل التحليل – خلال ساعة الجلسة – في الكشف عن مشاعري كانت كل الأفكار تتحول بطبيعة الحال عن مجرى حياتي العادية، وتتخذ وجهة أخرى مفصولة عن هذه الحياة، وغالبا ما كنت أنتقل إلى حالة نصف حالم ونصف نائم حتى أنني كنت أصحو في انتفاضة وفزع كلما طلب دكتور مكسويل تفسيرا أو سأل سؤالا.. وكانت الأحلام النهارية تراودني كلما غفوت وأنا في استرخاء على المضجع الجلدي.. وما هي إلا صور حوادث وقعت لي في صباي.. في طفولتي.. البعض منها قد عفا عليه النسيان، والبعض الآخر قد كبح ومنع..

"ها نحن هناك الآن.. رائحة تربة الأرض.. غلمان.. غلمان كثيرون، وها هو الصغير "فريدي تشيس".. لقد أحضرناه إلى هناك.. اقتلوا هذا الدعي ابن الزنا.. أنا لم ارتكب ذنبا.. لم أفعل هذه الفعلة.. هذا ما قالت.. استمروا.. إننا راحلون في الباخرة الساحلية ذات الدواليب.. أوه.. أوه.. كلا.. كلا.. هذا ما قاله هو.. هيا بنا يا أولاد.. ها أنا عند

الغدير وها هنا مراعي الأبقار تكتنف المنطقة.. في كل جهة.. ها هو رجلك العجوز يستقل سيارته العتيقة ماركة مكسويل.. أين أنا؟.. ها هو ذا مكان مرتفع يصلح للوثوب لمغطس يا رفاق.. راقبوا "فريدي تشيس" لئلا يشهر المطواة الكبيرة التي معه دائما"..

وعندما يلخص دكتور مكسويل حوادث كل جلسة تحليل، يستغرق هذا عادة عشرة دقائق، وفي النادر جدا أكثر من هذا قليلا ولكن غالبا أقل، ومن عادته أن يقول دائما عندما ينهي جلسته "سنستأنف عملنا غدا"، وقد اعتاد في آخر جلسات الأسبوع أن يمنحني بعضا من الوقت الكافي لأكشف له عن متاعبي، وعن منابع توتري النفسي.. وقد لاحظت أن العطلات الأسبوعية تمر ثقيلة وطويلة أثناء التحليل النفسي خصوصا متى كانت الانفعالات في أوج ضغطها

وكان دكتور مكسويل – وهو يدرك مدى تأثير الاضطرابات العنيفة وما تحدثه من أزمات طارئة – يحاول جهده أن يجعلني أمسك بصمام الأمان في هذه الدقائق التي يمنحني إياها في آخر جلسات الأسبوع حتى يمكنني إخراج بخار الاضطرابات التي تعتمل في أغوار نفسي قبل أن أدخل راحة العطلة الأسبوعية، وكان هذا منه تدبيرا حازما..

وقد لاحظ دكتور مكسويل أن كل أفكاري ومشاعري وانفعالاتي تنحصر في خواطر متباينة.. تضم الدوافع الجنسية والعدوانية، والخوف، والحب، والكره الممتزج بالحب، والاشمئزاز، والرغبة في الثراء وتفضيل

هذه على الإبداع العلمي بالعمل في حقل العلم.. ولاحظ أيضا أن موقفي نحوه قد تحول من موقف محايد لا لون لعواطفه إلى موقف ملئ بالكثير من عواطف الكره والغضب والنزوع إلى التمرد كما كنت مع أبي إذ أثور على سلطته وأتمرد على قسوته وجبروته فيما مضى من أيامي!. وهذه بدت واضحة جلية – كما قال دكتور مكسويل – في قولي له: "إن لون طلاء عيادتك يثير في نفسي الضيق والضجر".. وقال أن الكثير مما ذكرته من خواطر، وما كشفت عنه من أسرار حياتي، ولو جزئيا حتى الآن، قد بدت غريبة.. فائقة الغرابة، حتى لتحتاج منه إلى دارسة عميقة ليصل إلى لب هذه الدوافع والانفعالات.

وقال لي: "لقد انتهينا من الاتفاق على أن تترك ذلك الاتجاه المادي أو تلهفك على المال لتتفرغ إلى بحوثك العلمية.. لا يمكن أن تعمل في حقلين دفعة واحدة وفي آن واحد.. أما اتجاهاتك الطفلية المتصلة بعهد الطفولة، فهذه وجبة من الطعام لا يمكن لمعدتك أن تهضمها.. وهذه حالات يجب أن تصحح.. يجب أن يكون لها وضع آخر.. وأنا على يقين من أنك تستطيع ذلك لو تعمقت في نظرتك إلى نفسك.. لو عرفت نفسك كما يجب، وحاولت الحصول على الدليل الذي يكشف لك عن حقيقة هذا الاتجاه العصابي"..

كان دكتور مكسويل يتخذ هذه الطريقة معي طيلة الشهور الأولى من العلاج النفسي.. وكان يبدو كما لو كان محدود القدرة.. ولكن – كما تبين لي أو ظننت أنه تبين – قد تألقت مقدرته في كبح جماحي

عندما تبدو بشائر ثروتي وتمردي عليه وهروبي مما تعلمت.. ولم يكن مع ذلك فظا غليظا أبدا، بل كان يحمل في تصرفاته معي كل سمات الصدق والأمانة في رغبة واضحة لمساعدة إنسان مثله.

الفصل السابع

الأحلام

"... استرجاع ذكريات مئات الوجوه التي طواها النسيان، وآلاف الأيام التي اختفت بالانقراض حتى لتبدو الحياة عجيبة كالحلم.."

توماس وولف

عرفت فيما عرفت أن الأحلام كما تقع – بطريقة ظهورها الخاصة – تنتج مادة فجة "ناقصة النضج". عرفت أن "فرويد" قال عن الأحلام أنها المنفذ الرئيسي للرغبات التي تكبت عند الأسوياء من الناس. وهي وسيلة تحقق بعض الرغبات. ومن الممكن – عن طريق التحليل النفسي – أن يكون هناك توافق بينها وبين الحياة النفسية.. إنها لغة يستخدمها "اللا مشهور" للتعبير عن نفسه، وهي وسيلة مما تستعمله الدوافع اللاشعورية لتظفر ببلوغ الشعور المتيقظ..

بعد مرور وقت على بدء علاجي النفسي، تذكرت حلما بدا رائعا واضحا، ومن العجيب أنني استرجعته في حين أن من عادتي نسيان مثل هذه الأحلام بعد يقظتي فلا أتذكر منها شيئا..

وقد أشار على دكتور مكسويل بأن أسترجع الحلم دفعة واحدة كأنه قصة، ثم أسرده عليه في فقرات موجزة أو طويلة وبعد سرد كل فقرة أو جزء أوضح له كل الأفكار المترابطة معها فبدأت أجمع شتات الحلم، ثم أخذت أرويه بالطريقة التي أشاء بها دكتور مكسويل، دفعة واحدة في هدوء:

"رأيت جنازة كبيرة.. تمر طويلة في صفوف متراصة في الشارع الرئيسي في "ميدل تاون".. إن النعش من الخشب العادي وذا مظهر بسيط.. يحمله فلاحون من المكسيك.. الطرق مكتظة بصفوف الجماهير المحتشدة على الجانبين.. وحين تصل مقدمة الجنازة إلى أول الميدان الرئيسي للبلدة تتجه إلى اليسار ناحية الكوبري الذي تمر القطارات من تحته.. وأنا أراقب احتفال الجنازة من الناحية الجانبية.. من ممر جانبي.. وقد أطلق أحد المكسيكيين طلقة مسدس في الهواء.." ثم أخذت أسرده في فقرات: "جنازة كبرى.. تمر طويلة في صفوف متراصة في الطريق الرئيسي في.. في "ميدل تاون"..

"أوه.. أبي.. أبي.. أمي.. كوبري. أنا تائه. تعالي إلي يا أماه الحبيبة.. لقد استرجعت ذكرى الكوبري.. أنا الآن أفكر في ذلك الوقت الذي ضللت فيه وعمري أربع سنوات.. ووجدوني في هذا المكان بالضبط.. عند الكوبري أطل على القطارات التي تمر من تحته.. النفق.. ثم المراحيض.. مزلقان تقاطع "شارع البرتقال" وشارع "شجر

الإسفندان".. إن الطريق يصعب ارتقاؤه لأنه شديد الانحدار كالجرف.. أبي مات.. وذهب"

كان هناك "ترابط" في الجزء الأول من الحلم، وكذلك في الجزء الذي فيه أطلق أحد المكسيكيين طلقة من مسدسه في الهواء:

"غلام هائم على وجهه في الطريق الزراعي.. الأب يقود سيارته.. لماذا بحق جهنم لا يأخذه العجوز في سيارته ويعود به إلى البيت؟! غلام آخر بحجر.. إنه ذاهب إلى منزل ذويه في الجهة المقابلة.. لماذا بحق جهنم لم يأخذه العجوز في سيارته ويعود به إلى البيت؟! قال إن هذا عقاب له حتى لا يعود إلى الشجار مرة أخرى.. إن أسرة "كامنسكي" وهي أسرتنا.. أناس أدعياء أغبياء.. هذا ما قاله العجوز!.. ضربني بقبضة يده في أنفي حين عاد للبيت.. سال الدم من أنفي.. لقد حبست في مخزن.. الأب.. البلطة.. أورمة قطع اللحوم.."

إن الحلم جلي واضح معناه: إنني أتمني موت أبي!. وقد ظهرت جنازته في الحلم.. وقد يبدو هذا مستغربا.. رغبة شاذة تدل على العقوق، إذ كيف أتمنى موته وأنا بعيد عنه ولا أراه إلا نادرا بعد أن انفصلت عنه وأنا في سن الثلاثين؟! من المؤكد أن عقلي الواعي خلو من أية رغبة أو ثمن لقتل والدي!

ولما صارحت دكتور مكسويل بهذه الأفكار العجيبة الشاذة، ذكرني بأن الأحلام غالبا ما تستعيد أمامنا رغبات وحوادث منسية لا يتذكرها العقل الواعي.

أما بقية معالم الحلم فقد كانت واضحة غير مطموسة، لقد ظهر فيها الامتزاج العجيب بين بلدة "ميدل تاون" و"مكسيكو"، لأنني في العام الماضي قمت برحلة في السيارة عبر المكسيك، ومن سوء الحظ كدت وأنا أدور في أحد منعطفات الطريق أن أقتحم جنازة أحد الفلاحين وأنا في سرعة جنونية لا تتفق ونظم القيادة.. وكما ظهر في الحلم، كان الفلاحون يحملون النعش على أكتافهم..

ولما وجدت نفسي أكاد أداهمهم دون توقع، امتدت يدي آليا إلى بوق السيارة أطلقه في انزعاج لأمنع حدوث حادث.. فلما واجهت جمهور المشيعين انبرى لي أحدهم وأطلق طلقة في الهواء وهو في أشد غضبه، فاعتراني رعب شديد، وخشيت أن تكون الطلقة الثانية على مباشرة، فلم أقف وواصلت اندفاعي.. ولكن لما أدركت أنني تسببت في ربكة جنازة وددت أن أهبط من السيارة كي أعتذر عن تصرفي هذا الذي لم أكن أقصده.. ولكني من سوء الحظ كنت لا أحسن التعبير باللغة المكسيكية، أو بالأصح الإسبانية، ولذا قررت ألا أهبط من السيارة وأستمر في السير لأن في هذا سلامة لي رغم أنني كنت أشعر بالذنب والخجل!

وهذه الحادثة الجديدة في "مكسيكو" قد أطلقت قطار مترابطاتي النفسية – أعادت إلى عقلي ذكريات الماضي.. ذكريات الطفولة.. "غلام يسيل الدم من جرح قاطع في فروة الرأس"، وما إلى ذلك.. إن الحلم جرف من القاع – قاع ذاكرتي – حادثة منسية وقعت ذات يوم أحد خرجت فيه الأسرة للتنزه.. في سيارة أبي.. وإن أنسى لا يمكن أبدا أن أنسى ما أظهره أبي من قسوة وعدم اكتراث نحو ذلك الغلام..

وقد استطاع دكتور مكسويل بما له من خبرة فذة ومهارة فائقة أن يزيدني معرفة بنفسي بمساعدته لي عن طريق تفسير هذا الحلم وتطبيق وقائعه بطريقة منطقية ودراية كافية؛ فسأل:

– هل إسالة الدم من الأنف ذكرتك بشيء ما؟. هل يمكن أن يشير هذا إلى نزيف قرحة المعدة الداخلي الذي تعاني منه؟

وفي اليوم التالي أخذت أعالج التفكير في الحلم مرة أخرى، وخطر ببالي أن أساس كل ذلك هو الموت لا محالة، وتبين لي فجأة كيف كنت في حالة من الرعب شديدة وأنا في سن الرابعة عندما تركت أمي في حانوت البقالة وهمت على وجهي في الطرقات حتى وجدت نفسي وحيدا أقف مطلا على نفق السكة الحديدية متفرجا على القطارات وهي تمر!. وكذلك تذكرت حالتي وأنا منقول على سيارة الإسعاف إلى المستشفى لأعالج من نزيف القرحة.. وذكرت لدكتور مكسويل شدة خوفي من الموت.. فقال لي في بساطة:

– في كثير من الحالات يستطيع التحليل النفسي تخفيف وطأة المشاعر القاسية المؤلمة خلال مدة العلاج تدريجيا، إذ يعمل العلاج في صبر على معالجة الانفعالات المؤلمة، وعندما يتم هذا ستحس حتما بأن شعورك نحو الموت وخوفك منه قد قل كثيرا، وأرجو من كل قلبي أن يكون الحال كذلك.

وبعد عامين، وقد اقتربت من نهاية العلاج، عدت أفكر مرة أخرى في الجنازة المكسيكية التي صورها لي الحلم.. في الأفكار المتصلة بالدماء والإصابة في فروة الرأس.. استرجعت أفكارا قديمة.. ذكريات عن ختامي وأنا طفل في اليوم الثامن من عمري.. وقد حضر الحفل جميع أقربائنا وأصدقاء الأسرة تقريبا.. كانت "عملية الختان" بسيطة لم يستغرق الألم الناشئ عنها أكثر من بضع دقائق.. أما إزعاج الطفل بالأصوات العجيبة والضجة التي يحدثها المهنئون فهذه كانت تستغرق – كما عرفت فيما بعد عندما كبرت ووعيت – ساعة أو أكثر.. والطفل لا يفهم من أسرار الدنيا إلا الأمان الذي يجده فوق صدر أمه وفي صوتها الحنون.. وفي اعتقادي أن هذه عملية فيها ضراوة ولا فائدة منها لحياة المخلوق الصغير البرئ.. وقد وافقني دكتور مكسويل على هذا الرأي..

وهناك حلم أثبت بالدليل مرة أخرى كيف أن المرء يمكنه أن يفيد من أحلامه عندما يطلقها على سجيتها دون أن يحاول إخضاعها لمشيئته، فرويت لدكتور مكسويل حلما يبدو أنه كان سارا لطيفا عندما كنت أتمتع بحوادثه وأنا في سبات عميق.. قلت:

رأيت أني أسير في أحد الطرق، وقد قابلت دكتور "لوتون" وهو أحد أساتذتي في دراسة الكيمياء بجامعة "ميدل وسترن".. وقد توقف كل منا ليحيى الآخر بهز يده في حرارة وصداقة.. ثم مضينا بعد حديث قصير.. لقد كانت هناك مشابهة عجيبة في ملامح الوجه وفي الحالة الجسدية بينه وبين أبي.. وقد عبر الحلم عن حديث ودي مع والدي.. أي أنه عبر عن رغبتي في عودة المياه إلى مجاريها مع أبي.. عودة المحبة بين والد وولده.. ويظهر أن الحلم كان يعبر بقوله – على لساني – "أود أن يكون والدي رجلا مهذبا مثقفا، وأستاذا محبوبا من طلبته ومن الناس بدلا من أن يكون رجلا مليئا بالعدوان، والفظاظة كرجل أعمال".. وعلى كل حال كانت تأويلات هذا الحلم مناقضة تماما لما كان يجول في خاطري من أفكار مترابطة ظهرت في الجزء الثاني من الحلم! .

إن مجموعة هذه الأفكار المترابطة في شبه خواطر دلت على أن "توقف كل منا ليحيى الآخر بهز يده في حرارة وصداقة. أشعر برغبة ملحة في أن أضربه في وجهه، وأنزع ذراعه، وأطرحه أرضا!."

الدوافع التي وراء هذا الحلم هي بواعث عدائية وليست بواعث فيها مودة أو صداقة؛ إنها ضروب نفسية من الكره والمقت، إن دوافعي العدوانية كانت مقنعة بالعمل اللطيف، والتصرف الرقيق بهز اليد في مودة وحرارة. والحقيقة أن عقلي "نصف الواعي" كاد يدفعني إلى نزع ذراع البروفيسور من جسمه لأنه كان يشبه والدي ويمثله!. وغالبا ما يجد المرء في الأحلام ما يكون سجية بديلة تخفي وراءها المعنى الحقيقي، وهنا مرة

أخرى ظهر في هذا الحلم "البرهان البديل" على عمق أغوار تلك المشاعر العدائية التي كنت – إلى حد بعيد – أشعر بها نحو والدي في قرارة نفسي!.

وبعض الأحلام قد يكون فيها كنز من المترابطات والتأويلات التي من شأنها أن تساعد على المضي قدما في السلوك العلاجي.. إن الأحلام من غير شك كما قال بعض العلماء النفسيين، لها دلالة بيولوجية في حل مشكلات الحياة خصوصا في الحالات التي يكون فيها المرء في موقف المناجز للأفكار الحرة...

وقد رأى دكتور مكسويل أول ما رأى أن أروي له الحلم كاملا كما يرد على ذهني دون تحرج، ثم أقسمه إلى أجزاء، وعليه هو الباقي في تناول كل جزء على حدة وتحليله وتأويله مستعينا بسؤالي وأنا في حالة التداعي الحر.. وبذا يستطيع أن ينفذ إلى باطنه..

وها هو ذا حلم آخر:

"حلمت أنني وسط جماعة من المحكوم عليهم بالإعدام، وكان منفذ الحكم شخصا أعرفه.. فابتسم إلي ورفع بندقيته، فتقدمت خطوة إلى الأمام، فقال متسائلا: "ألست أنت الأخير؟" فتجاهلت سؤاله وقلت "صوب جيدا".. وأطلق النار فكان الطلق واطئا.. فأنزل بندقيته.. ولما رفعها إلى كتفه مرة أخرى صوب فوهتها نحو صدري وأطلقها.. وشعرت برصاصة تنفذ إلى قلبي، فاستيقظت مرعوبا متوتر الأعصاب"..

وتنفيذا للروتين الموضوع، أخذت أقسم الحلم إلى أجزاء صغيرة مترابطة ببعضها مع بعض فكانت:

"أنا ضمن جماعة من المحكوم عليهم بالإعدام"..

"جيك بليك.. طبيب أسنان في "ميدل تاون".. يتكلم عن طب الأسنان.. جياد.. مخزن غلال.. نبات.. طلق ناري صادر من الدور العلوي لمخزن الدريس.. قصة رجل نفذت مذراة في صدره كانت مختفية داخل الدريس.. فشعرت بتوتر نفسي وعصبية".

"كان منفذ الحكم شخصا أعرفه.. فابتسم لي ورفع بندقيته"

"توم بليك.. "ميك فيليبس".. مدينة كنساس.. ابن عمي بول.. لعنة الله عليه.. أنا لم أسرق أي شيء.. هو الذي سرق بعض الأشياء من محل بقالة.. مخزن مبيعات.. والنساء تعصر الفاكهة".

"تقدمت خطوة إلى الأمام.. فقال متسائلا: "ألست أنت الأخير؟"

"أنا أقود العصابة في "ميدل تاون" على مقربة من المدرسة.. "ميك كاسيدي" يبرز من صف الخصوم.. نتقدم نحوه.. إنه عدونا سألكمه في أسنانه.. انظروا.. إن طبقة الثلوج تتحطم في بركة المياه المتجمدة.. سنتخذها ملعبا للتزحلق"

"تجاهلت سؤاله وقلت: صوب جيدا.. وأطلق النار فكان الطلق واطئا.. فأنزل بندقيته.. ولما رفعها إلى كتفه مرة أخرى صوب فوهتها نحو صدري وأطلقها علي.."

"أنا زعيم عصابة في المدرسة.. عصابة قليلة العدد تعادي عصابة كبيرة العدد ولكني أتحدى القوم بشجاعة.. أطلق النار علي إذا استطعت.."

"شعرت برصاصة تنفذ إلى قلبي.. فاستيقظت مرعوبا متوتر الأعصاب"

"رأس دام.. أبي.. إن الغلام في "ميدل تاون" كان يخترق الطريق.. لماذا لا يسعفه؟. ضربني بقطعة من حجر الإردواز".

فسألني دكتور مكسويل:

– ما معنى ذلك بالنسبة لك؟. أي شيء فيه يتصل بك؟.

– إن فيه الكثير من القلق والجزع والضجر والهم.. وكذا الكثير عن طور طفولتي.. ولا شك أنه مازالت هناك بعض المعالم التي عاصرت طفولتي.. وهذا الحلم يكشف كذلك عن حالتي النفسية وعن الرعب الذي ما زال يكتنفها، وهو رعب قديم عاصر طفولتي وما زالت متاعبه مصدر هم وجزع لي

"أنا أعرف أني أبذل الجهد في مقارعة تلك الهموم والمتاعب لأفلت منها، وإنه ينبغي علي أن أعيش في الحاضر ولا أعيش في الماضي إلا بمقدار.. مقدار ضئيل.. وبلدة "ميدل تاون" يجب ألا يكون اتصالها بحاضري من ناحية الألفة والمودة كما هي الحال في علاقة مخاوفي بهذا الحاضر.. كما يبدو"

فوافق دكتور مكسويل على ما قلت وزاد عليه قائلا:

– ليس الخوف هو لب المشكلة البادية في الحلم، لأن الخوف لم يبد أثرهما إلا في هذا الوقت الحديث، وأنت غالبا تبدو غاضبا مضطربا لأننا نقترب من عطلة الصيف، إذ ربما تملك الخوف نفسك خشية أن يكون التوقف عن العلاج شهرين سببا في جماح الجزع في نفسك أو معاودة عوارض قرحة المعدة التي تشكو منها، ولكني أصارحك بأن شيئا من هذا لن يحدث..

فكان هذا التشجيع يبدو معقولا مطمئنا، وعاد دكتور مكسويل يقول لي:

– وعلاوة على ظاهرة الخوف أو مشكلة الخوف التي تبدو لك رأس موضوعك، فهناك عنصر أساسي لظاهرة الخصومة والعداء التي تظهر جليا في هذا الحلم. إن هذا العنصر جزء من شخصية عادية، ولكنها شخصية غير معروفة عنك، وهي التي لعبت دور الجلاد منفذ حكم الإعدام فيك!.. إنه أطلق الرصاص عليك، وأنا لا أدهش إذ أتصور

أن الوضع عكسي، وأن الرغبة على الضد.. أنت منفذ حكم الإعدام!. وأنت تطلق الرصاص علي أنا! فتقتلني لأنني مفارقك لمدة شهرين في عطلة صيفية!.. وربما تذكرت أنك منذ أيام كنت في مخزن للسلاح والمهمات الرياضية، حيث كنت تشتري بندقية، ثم تكلمت عني وعن أجازتي الصيفية، وسألتني عما إذا كنت قد تمتعت بقنص الطيور وصيد الأسماك...

إن هذا الحلم أفادني كثيرا لأنه ساعدني على تفهم العديد من المشاكل التي تأخذ بعنقي، وأهم درس جديد تلقيته هو تأثري العميق لهذا الفراق الذي سيطول شهرين ويبعدني عن دكتور مكسويل أثناء العطلة، وهذا من شأنه أن يريني إشارات الخطر.. إشارات الرعب والجزع.. فلم أتريث وأفضيت بمخاوفي إليه فور شعوري بها، قبل حدوث هذا الفراق ببضع ساعات!.. وقد مرت عطلة الصيف على ما يرام، بل أحسن مما كان يتوقع أو يرجو.. وهذا راجع – ربما – لأن دكتور مكسويل وأنا قد أنذرتنا الأحلام والأفكار المتضمنة فيها.

وكثيرا ما كنت أتذكر جزءًا من حلم، فكان دكتور مكسويل يحثني على أن أحاول الجمع بين أجزاء الحلم في ترابط، أملا في العثور على العنصر أو المادة المهمة بينها.. وفي غمار هذا الغموض ربما كان في استطاعتي أن أكشف عن معالم حلم كاد ينسى.. وقد حدث هذا فتذكرت الحلم التالي:

"حادث غرق.. كنت أشعر بتوتر شديد بلغ حد الاختناق.. أنا أحاول استرجاع الوقت الذي كدت فيه أن أغرق في النهر القريب من "ميدل تاون".. لقد هبطت إلى القاع مرتين.. أشعر بذلك الآن كما لو كان قد وقع توا.. فصرخت طالبا النجدة.. لم تخرج الصرخة من فمي لأنه كان مليئا بالماء.. فلم أستطع الكلام.. وتذكرت المحاولة اليائسة التي بذلتها للوصول إلى الشاطئ.. والرعب الشديد الذي شملني لأنني خشيت أن أفشل في محاولتي"..

وقد أراد دكتور مكسويل أن يعرف هل هذه الحادثة المرعبة التي وقعت لي وأنا في سن العاشرة قد سببت لي رد فعل نحو السباحة وغيرها من الرياضات المائية، فأسرعت لأقول له مؤكدا أنها لم تؤثر مطلقا في مشاعري، ولم تحدث أي فرق ولو طفيفا.. لقد كنت دائما سباحا جريئا من "عفاريت الماء" في المسافات الطويلة، وفي الغطس من علو شاهق.. ولكن في الوقت نفسه، في نفس اللحظة التي أقول فيها هذا الدكتور مكسويل، طرأ على ذهني أنني أكذب!.. لقد كنت في الواقع شديد الرعب وأنا في الماء أناضل لأدفع عن نفسي الغرق ومنذ تلك اللحظات الرهيبة التي حدثت لي وأنا غلام في العاشرة، ما زلت أشعر بتوتر في أعصابي لا يفارقني أبدا.. نعم لم أظفر بلحظة استرخاء بعد تلك الحادثة التي كان موتي غرقا وقتها على قاب قوسين أو أدنى..

وبعد نقاش هذه تعلمت تدريجيا أن أكون سباحا ماهرا، في أول الأمر قريبا من الشاطئ، ثم تدرجت إلى بلوغ مكانة رفيعة في السباحة

والتجديف بطريقة فنية سليمة.. لقد كان الفضل في ذلك إلى الجزء الصغير من الحلم الذي فسره دكتور مكسويل.. وقد حل مشكلة خوفي من الغرق، وهو الشعور الذي لازمني طويلا، وبعد ذلك كان في استطاعتي أن أتمتع بسرور حقيقي يمكن للسباحة المريحة المسترخية أن تحققه للإنسان.

وفي اعتقادي أن الحلم القصير المتقطع ربما كان أكثر فائدة من الحلم الطويل من الناحية النفسية، ومع ذلك فها هو حلم طويل تذكرت حوادثه التي استرجعتها من الماضي القريب:

"أنا راقد في فراشي وبجانبي فتاة صديقة اسمها "آنا ".. وكان ضوء النهار ينفذ خلال سجاف النافذة المفتوحة، وإذا بي أسمع صوت سيارة تقف بجوار البيت، ثم أرى أبي وأمي وأخي يهبطون منها فأثب من الفراش بسرعة لأختفي في غرفة متصلة بغرفة النوم، ولكن أخي كان أسرع مني، فرأيته أمامي وأنا في طريقي إلى الهرب؛ فيحمر وجهه من الخجل، ولكنه يخفف عني بقوله أن والدي لم يرياني ولا يعرفان الفتاة التي معي.. والتقيت بأبي وأمي في القاعة الأخرى في حالة طبيعية ، وأخذت أرحب بهما وأمزح.. وقدمت لهما "آنا" التي كانت تبدو منزعجة في بادي الأمر، ثم ما لبثت أن تمالكت جأشها وهدأ روعها، بعد أن كانت غاضبة مضطربة، ثم انفصلت بعد ذلك عن أشخاص الحلم..

"ودار نقاش بيننا عند عودتي إلى البيت بعد القطيعة، وهذا سبب حضورهم إلى بيتي، ولكن لم ينته الأمر إلى قرار حاسم للعودة معهم في السيارة في تلك الليلة.. لقد أخرت الميعاد، وتحادثنا قليلا، ثم ودعتهم حتى الباب.. وبعد ذلك رأيت عمي وعمتي على بعد قليل مؤملين نقلهما في السيارة إلى "ميدل تاون".. وهنا رأيت رجلا يصحب أمي، وهو رجل قزم لم أعرف من هو! إنه يشبه "لاجوارديا" وملتحف بكفن من أكفان الموتى!.. وبينما يهمون بالانصراف، خرجت "آنا" مندفعة من البيت، وأخذنا نتكلم جميعا، ولم تكن تبدو على أيهم حيرة أو ارتباك، إذ كانوا يعتبرونها واحدة من الأسرة، وليست إحدى العاهرات، ثم انصرفت الأسرة..

"وبعد انصرافهم أخذت أتناقش مع "آنا" فيما تنتويه، فاقترحت أن نرتدي ملابسنا ونخرج لنزهة قصيرة سيرا على الأقدام، ثم نعود وقالت: "سنكون قد عدنا إلى حالتنا الطبيعية بعد هذه النزهة" وقد امتزج هذا الحلم الطويل الغني بمناظره، بكثير من المترابطات المختلفة.. مجموعة من الخواطر المتباينة.. لم بر فيها دكتور مكسويل ولا أنا أية نماذج تستحق الاهتمام، وقد تعلمت من هذه الخبرة النفسية وغيرها أن طول الحلم لا يدل حتما على أنه مهم..

إن الأحلام غالبا ما كانت تقودني إلى التعرف على ما يزعجني ويشغل بالي أسرع مما يتأتى عن طريق الخواطر لمترابطة الحرة التي تمون العقل "نصف الواعي" بذكريات الطفولة.. والقليل من هذه المترابطات

يشير مباشرة (في المثل الآتي) إلى ذكريات مسترجعة من عهد الطفولة وبلل الفراش!..

"أنا جالس على مبولة لقضاء الحاجة.. لقد بللت خشب المبولة وتسبب الماء في إصابة ملابسي الداخلية بالبلل.. فأخذت في تغيير هذه الملابس.. وعندما خلعت سراويلي تبين لي أنني أليس جوارب حريرية طويلة!."

لقد زودتني الأحلام أيضا أنا ودكتور مكسويل بما كان يكشف لنا عن حالات التوتر النفسية وهي قابعة في أغوار العقل "قبل الشعوري" وكنت قبل التحليل النفسي فريسة سهلة للكابوس مرة أو مرتين في الشهر، وكثيرا ما سببت لي تلك "الكوابيس" الملعونة انزعاجا فكنت أصحو من نومي مرعوبا صارخا!. على أن هذه الأحلام المزعجة ندر أن تراودني في أول عهدي بالتحليل في العام الأول.. ومن ثم فارقتني إلى غير رجعة خلال العام الثاني من بدء التحليل!..

ولكن علاوة على تخفيف هذه المزعجات المرعبة، كانت الأحلام دليلا على مدى تقدم التحليل النفسي وظهور ثمرته، فمثلا حلمت في العام الثاني من بدء التحليل، أنني اصطحبت واحدا من أولاد أخي للتنزه في حديقة الحيوان، وقد ظهر أثناء الحلم أنني كنت في أوج سعادتي وسروري وقد كنت أجيب عن أسئلة الطفل وأشبع نهم فضوله الصبياني في ابتسام وغبطة..

فقال دكتور مكسويل: "إن حلمك هذا هيأ حالة وجدت فيها غبطة حقيقية وأنت بعيد عن جو عملك.. فمن الصواب إذن أن تغتنم من وقت فراغك ما يمكن أن تظفر به من الوقت، على أصل يتعارض مع وقت جلسات التحليل، ويكون مبكرا عنها.. وأعتقد أن هذه "علامة" على تقدم حقيقي نحو حياة انفعالية أفضل من ذي قبل.

الفصل الثامن

الرجل الذي خلف المضجع

"لقد استسلم إليها في خضوع تام، وأرهف سمعه في إصغاءة تامة ليستطيع التقاط صوتها الخافت الآتي من مكان سحيق"

داي لويس

يخيل إلي أن العقبة الكبرى في قبول التحليل النفسي عن رضاء تام ودون تردد أو معارضة، هي المقاومة المتأصلة في النفس، والتي ترفض في تمرد أن تكون حياة الفرد تحت رحمة غريب!..

إن المحلل النفسي ينظر إليه دائما في أول الأمر، على أنه غريب لأن الواقع المعروف أن المحلل النفسي لا يقبل علاج صديق أو قريب.. أدركت أن ليس من السهل علي أن أستلقي فوق مضجع المحلل النفسي وأسمح له كشخص غريب عني، بأن يصل إلى الصميم من أسراري..

إن الأشباح الدفينة التي تداعب الخيال كرغبات جنسية، أو نزعات مجرمة، أو دوافع شريرة تهدف إلى القتل، كانت وستظل إلى الأبد من المسائل الخاصة التي يحيطها الكثيرون منا بسرية تامة.. إننا نخفي هذه الدوافع الوجدانية ليس فقط عن أصدقائنا ومعارفنا وأقربائنا، بل عن

أنفسنا.. ومع ذلك فعندما نكون في عيادة المحلل النفسي فالمفروض أن نكشف الغطاء عنها كلها في إيضاح تام!..

إن المحلل النفسي يعرف ما هي الشهوة الإنسانية، وما هي الدوافع الإجرامية، وارتكاب الفحشاء في المحرمات، وما هو الجرم العظيم الذي تسببه هذه الدوافع الناقصة غير المكتملة!

فمهمة المحلل النفسي هو أن يعلم المريض كيف يتفهم الموقف تماما، ويستطيع أن يطرد نزهة الإجرام التي لا لزوم لها، وبهذا يحول مجرى الاتجاهات أو يخمدها، أو يخنقها في مهدها يكبح جماحها وتحويل نشاطها إلى الطريق الصحي النافع.. فلما تكشفت لي هذه الحقائق وجدت من السهل علي أن أقبل – من جانب واحد – العلاقة بالدكتور مكسويل، وقد استطاع هو بالتدريج أن يجعلني أدرك أنني لم أكن قط "مشكلة شاذة" منفردة، أو خارجا على المجموع.. ولكن الناس.. كل الناس.. حتى العاديين منهم.. لا تمر بهم مثل هذه المشاكل دون صراع مر معها..

واعتقادي الشخصي أن ضغط "المركبات النفسية" كان دائما يقلل ويضعف من قوة احتمال الوسائل الدفاعية، وكان الدكتور مكسويل يعمل جاهدا على أن يقلل من قوة الدوافع المتصارعة، ويقوي المؤثرات العقلية.

وقد كان المتفق عليه بيننا أن تكون فترة التجربة ستة أسابيع، فلما أوشكت أن تنتهي قال لي لدكتور مكسويل:

"لقد اتفقنا على أن تكون مدة التجربة ستة أسابيع، وبعدها نقرر ما إذا كان العلاج لا بد أن تطول فترته أم لا.. وقد كنت أفكر في هذا الأمر حذرا.. وكذلك دكتور "جولد شميدت" الذي كان من الطيبة بحيث اتصل بي منذ أيام قلائل، وسألني عن الحالة إجمالا، وعن قرحة المعدة بصفة خاصة، فكانت إجابتي بأنني أنصح – رغم تحسن الحالة – بالاستمرار في العلاج الشامل، لأن الضرورة تقضي بذلك، وأنني لن أحدد مدة، فوافق دكتور شميدت على هذا الرأي وطلب إلى أن أخبرك"

وكنت أرجو أن يقول لي دكتور مكسويل بألا حاجة بي إلى تحليل شامل بعد تلك المدة التي انقضت، وهي مدة مؤلمة مكلفة، ولكنه لم يفعل إلا العكس! رغم هذا شعرت في قرارة نفسي بأنه كان على حق في هذه التوصية.. لقد رأيت عن كثب ما فيه الكفاية خلال هذه الأسابيع الستة فوق المضجع.. أدركت أن ذلك الوحش القابع في أغواري هو الذي يحرك قرحة معدتي، كما أنه هو الذي يتولى تحريك سلسلة انزعاجي، وقلقي في نوبات متلاحقة من الانفعالات، والاضطرابات!..

واستمر علاجي، وأخذت المضايقات تتوالى نفسيا وماديا، ولكن الحق يقال أنني كنت أشعر ببعض التحسن، وفي جلسة شعرت أنها

طالت أكثر من اللازم – وهذا غير الواقع مؤكدا – خرجت من مدار ثرثرتي لأقول في شبه توسل:

"أنا أخشى مجرد الفكرة بأنك راحل يا دكتور مكسويل.. أريد أن أبقى بجوارك.. فكرة سفرك في عطلة الصيف تفعم نفسي بالغضب.. ولو أني أعرف كم أنت في حاجة إلى راحة بعد العناء الذي تلقاه طيلة شهور العمل الطويلة.. ألا يمكنني الحصول على أجازة لأقضيها في نفس المصيف الذي ستذهب إليه وبذا أستطيع الاستمرار في العلاج؟".

كانت هذه نقطة تحول تعمل في مظهر آخر من مظاهر العلاقة بين المريض والمحلل، وكما هو ظاهر من هذه الخواطر المترابطة، لقد انتقلت إلى محيط آخر هو محيط "الطفل – الأم" وهو طور من أطوار التحليل النفسي يشير إلى رغبتي في الاعتماد على دكتور مكسويل ليرعاني كما ترعى الأم طفلها.

ولما وصلت أخيرا في تقدمي التحليلي إلى نقطة يستطيع المرء منها التحدث منطلقا في حرية تامة عن كل ما يدور في رأسه، كان علي أن استمر في هذا الانطلاق إلى مدى بعيد قبل أن تكون لي الحرية الكاملة في التعبير عن خواطري، وحتى بعد مرور أسابيع كثيرة مع دكتور مكسويل، لبثت أقوم بدور الرقيب، وأمر بقلمي على خواطر معينة لأستبعدها من صفحة حالتي الشعورية، حيث كانت طافية ظاهرة، ويظهر أنها كانت من التفاهة بحيث لا تستحق أن تذكر..

"إني أسترجع الآن وأفكر في ذكرى بعيدة.. لقد كنت في عطلة صيفية عندما كان عمري اثنى عشر عاما. وكان برفقتي صديق اقترض مني بعض المال.. إن ذلك الغلام الملعون مازال مدينا لي بخمسة ريالات!. أنا غاضب.. يا لجهنم!.. إن ذلك الدعي لم يهتم حتى بالرد على خطابي!. إنني أشعر بانزعاج إزاء هذه الحادثة التي مر عليها قرابة عشرين عاما!"

لقد تبين لي في وضوح أن دكتور مكسويل يرحب بكل المشاعر الصادقة العدائية التي تروى له – حتى ولو كانت موجهة إليه شخصيا ومباشرة – ولم أستطع أن أتبين ذلك إلا بعد وقت طويل.. ففي الأسابيع الأولى من العلاج تركت جانبا مشاعر وأفكارا على أنها غير ملائمة، ولكن ظهر فيما بعد أنها على جانب كبير من الأهمية، إذ ساعدتني على تحديد معالم الطريق في تحسن حالتي بهذا العلاج البطئ الحذر..

لقد بذلت مجهودا جبارا لأعبر بالألفاظ عن خواطري المترابطة الآتية..

كنت أرتجف وأعصابي تختلج في شدة، والعرق يغمرني، ولكنها خرجت من فمي أخيرا:

"إني في حالة توتر عصبي مروعة يا دكتور مكسويل.. إنني أكره أن أقول هذا الذي أود أن أقوله.. ولكني أشعر بأن هناك فكرة تحيط بي وتدير رأسي، فكرة تضيق على الخناق وهي أنني راغب أشد رغبة في صرعك!.. شديد الرغبة في طرحك أرضا!.".

لشد ما شعرت براحة البال عندما سمعت دكتور مكسويل يقول بأسلوبه الناعم الرقيق:

"لقد أفادك هذا القول الذي كنت تكتبه وتخشى أن تبوح به، ولكنك الآن فعلت كما يفعل الطبيب المعالج بامتصاص السم من الجرح.. لقد فجرت دمل انفعالاتك، وأخرجت السم منه. ألم يخطر لك على بال أن من المعقول أن يكون هذا الكبح الزائد المفرط قد أزال بعض أغشية معدتك كما يزيل عمال "الرشمة" الصدأ عن الحديد، فسبب قرحة المعدة؟".

وكنت على استعداد من جانبي لأن أقرر مذعنا بأن مثل هذه النوبات من القلق والحصر، وما يتخذ حيالها من كبت أو كبح من شأنها أن تسبب أي نوع من المرض!.. وحتى اللحظة التي أخرجت فيها تلك الكلمات التي قلتها لدكتور مكسويل، كنت أشعر بتوتر شديد في أعصابي، وضيق خانق حتى ظننت أنني سأصاب بذبحة صدرية، أو ضربة من ضربات ضغط الدم!..

ومرت الأيام، ودكتور مكسويل يكشف عن براعة مذهلة.. لقد تبين لي أن المحلل النفسي البارع يستطيع أن يكون لاعب "بوكر" ممتازا.. يعرف كل ما يحدث أثناء اللعب، ولكن لا يمكن أن ينم وجهه أو صوته عن ذلك!..

"لقد استسلم إلى اللعبة في خضوع تام.. وأرهف سمعه في إصغاءة تامة ليتمكن من التقاط صوتها الخافت الآتي من مكان سحيق"!..

الفصل التاسع

ذكريات قديمة

"قد نعثر على القليل من ذكرياتنا الماضية لأن تلك الذكريات أشبه بمخزن دواء أو معمل كيمائي، والصدفة فقط هي التي ترشد أيدينا إلى ما نبحث عنه"

مارسيل بروست

إن بعض التجارب النفسية المذهلة التي يثيرها التحليل النفسي تنشأ عادة بعد إماطة اللثام عن ذكريات محددة المكان والزمان قد أصبحت في زوايا النسيان.. والوقائع المخفاة منذ الطفولة المبكرة، تعود ساطعة إلى العقل في صفاء ناصع.. كذلك الحوادث العارضة التي وقعت منذ مرحلة المراهقة حتى مرحلة النضج تعود فجأة.

ويتبين هذا مما رويته لدكتور مكسويل وأنا في حالة استرخاء:

دكتور مكسويل.. إن من ذكرياتي المسترجعة صورة زاهية واضحة المعالم عن صندوق، علبة.. تفتح.. فتثب منها أفعى كريهة رقطاء ذات لون أخضر يميل إلى الصفرة.. يتبين لي أنها ثعبان مصنوع من القماش المحشو مثبت في زنبرك.. وهي لعبة للمزاح الثقيل.. إني أراها الآن

ظاهرة في وضوح.. في صالون البيت الذي ولدت فيه.. وكنت وقتئذ على الأرجح في الرابعة من عمري، أو ربما أقل قليلا.. كانت لدي وقتذاك رغبة في أن أزحف على بطني فوق أرضية القاعة كما لو كنت أمثل دورا هزليا سخيفا في مسرحية انتقادية.. إني أرى القاعة مشرقة الضوء.. هناك مصباح كهربائي بغطاء إطاره من الخرز، ومضجع طبي.. جسم بلوري يعكس صورا وراءه، فيخيل إلي أنني أرى منظر قصر الفاتيكان، ثم منظرا آخر لبرج إيڤيل، ثم قاعة الطعام.. وفي الوسط مائدة طعام ثقيلة مرصوص عليها كؤوس وطاسات من الزجاج السميك، وفناجين من الخزف، وصورة لطائر مائت مخضب الريش بالدماء.. وأرضية مكيفة الجوانب بالهواء الحار.. ودورة مياه منظرها أصابني بالتوتر العصبي.. إنني أشعر برعب شديد من هذه المبولة بدافع نفسي لا يقاوم!. وها أنا ذا أرى نفسي محبوسا في دورة المياه تلك، ولا أستطيع الخروج منها.. والآن استرجعت ذكرى حلم يشير إلى ما ذكرت، في تورية:

"فتحت دورة المياه، فوجدت فيها هيكلا عظميا لامرأة.. أردت أن أمارس عملية الاتصال الجنسي معها.. وأخذت أمعن النظر فيها فتبين لي أن هذا الهيكل العظمي ما هو إلا فتاة من صاحباتي!..

"أتمنى على الله يا دكتور مكسويل ألا يستمر الآباء والأمهات على العادة القديمة الشاذة وهي إيهام أطفالهم بأن الأطفال المولودة تأتي إليهم في صناديق محزومة"

قلت هذا وأنا في أشد حالات الغضب يوما ما وأنا أروي له خواطر حرة في إحدى جلسات التحليل النفسي.. وإذ ذاك برزت أمام مخيلتي صور زاهية.. وعلى التحديد صورتان إحداهما لامرأة حبلى رأيتها هابطة بالمصعد للذهاب إلى الطبيب، والأخرى صورة أمي وهي حامل أيضا؛ فتوترت أعصابي وشملني الغضب وتملكتني رغبة ملحة في أن أصرخ في وجه دكتور مكسويل!.

"كان عمري وقتئذ خمس أو ست سنوات، وكانت أمي حاملا، كانت والحيرة تبدو في ملامح وجهي لما رأيته من انتفاخ بطنها. ولما سألت عن سبب هذا الانتفاخ تلقيت جوابا فيه من التملص والغضب سواء من أبي أو الجيران.. وأخذت أنا وغلام آخر من سني نتكلم عن هذا السر المهم.. وبعد الوضع، اشتبهنا – أنا ورفيقي الصغير – في أن الطفل الذي ظهر بجانب أمي لا بد وأن يكون قد عاش في بطنها حتى كبر!. وقال لنا الناضجون الذين بلغوا الرشد من الصحاب والأهل أن الطفل قد أتى في ذلك الصندوق المركون بجوار باب المخزن.. ولذا فقد انصرفنا عن التفكير في هذا الأمر مرة أخرى، على أننا مع ذلك قد أدركنا من تلميحات كافية صدرت من الأولاد الكبار – أولاد الشارع – أن الحمل ينشأ عن عمليات جنسية كانوا يهمسوا بتسميتها في كلمات بذيئة، ولهجة شاذة مخجلة لا يصح أن تقال".

فقال دكتور مكسويل أن بعض الراشدين الذين نضجوا وتفهموا الحياة – ولو أنهم قليلون – قد تغلبوا على ذلك الجهل المطبق الذي

كان سائدا في العصر الفيكتوري، وعلى كبح العواطف وضبطها، صاروا يدركون ويستصوبون الوضع الحقيقي للطفل وينظرون النظرة الحقة للأسئلة التي تتوالى لمعرفة حقيقية موضوع الجنس والحمل.. وتساءل دكتور مكسويل عن السبب الذي يمنع من إجابة الأطفال عندما يسألون عن الجنس؟. لماذا لا نعطيهم الإجابات الصادقة الكاملة التي تتناسب مع أسنانهم وعقلياتهم وإدراكهم؟. ربما لا ندرك أنها تهم تماما التفصيلات البيولوجية دفعة واحدة وفي الحال.. ولكن يجب أن يعطى الطفل الأجوبة الصادقة حتى يشعر بأن الواضحين من أهله قد وضعوه في الدائرة العائلية الودودة الأليفة وأنهم يعاملونه بعطف وعدل..

وبعد برهة صمت استطرد دكتور مكسويل يقول:

"حاول أن تدرك كيف أن تلك المزاعم أو الوسائل الصارمة التي كانت بمثابة موانع وتحذيرات قاسية تقف في طريقك الطبيعي، أمكنها أن تحولك إلى درب جانبي غير الذي يجب أن تسير فيه.. وبعبارة أوضح استطاعت أن تحجب مقدارا محققا من "الإبداع العلمي" أن تقصيك العلمي ربما كان لا يزال يقاسي من تلك الذكريات المؤلمة القديمة، وربما يمكنك أن تصل إلى اكتشاف علمي أو نظريات علمية جديدة إذا طردت بعض أحلامك النهارية عن النساء والجنس" .

وحاولت أن أعمل بنصحه هذا...

في طور طفولتي لم تكن هناك مسحة صدق متصلة بالأسرة أو الجماعة، وحتى ذكرياتي المبكرة كانت مليئة يتبين منها أنها كانت مفعمة برعب شديد من الوالدين.. كنت أبدو بعيدا عنهما كما لو كنت غريبا عنهم! وعندما أكون واقعا في محنة أو مشكلة أهرب بعيدا عنهما بدلا من الالتجاء إليهما لحمايتي وتخفيف عبء المحنة عني! ..

إنني الآن أعود بذكرياتي إلى حادث وقع لي وأنا في السادسة من عمري: "كنت ألعب الكرة يوما ما، وضربت الكرة فتعدت الحدود وصدمت واجهة عرض زجاجية في محل تجاري فحطمته، فتملكني رعب مروع ولم ألبث أن تركت اللعبة وعدوت إلى مخبأي السري في غرفة فوق سطح منزلنا، وبقيت هناك مختبئا ساعات طويلة خشية أن أعاقب عقابا شديدا!.. وعندما ساد الظلام، سمعت والدي وهما يبحثان عني، ويؤكدان أنني لن أعاقب، فلما سمعت هذا الوعد منهما، برزت من مخبأي، ولكني كنت لا أزال أشك في هذا الوعد وأتوقع منهما.....!..

قلت مرة وأنا في حالة استرخاء فوق المضجع:

"كنا نكره أحد المدرسين، ونعمل على معاكسته، وتجاوزنا تصرفنا الشاذ معه لدرجة أننا كنا نغلق باب "الفصل" علينا، ونتركه يقرعه طويلا، ونعتذر بأننا لم نسمع القرع!. وقد أخذ المدرس يبادلنا كرها بكره ويعمل في تفنن على إيذائنا، فكان يترك التلميذ يتلوى من الألم ويمنعه من الخروج للتبول، ولكنه حتى يجد الأمر قد بلغ مداه، يصرح له بالذهاب

إلى المبولة وهو يشيعه الجملة النابية "اذهب وأرجو أن تسقط في المرحاض"

"وأذكر يا دكتور مكسويل أن أحد المدرسين غضب مني غضبا شديدا دون ما سبب أعرفه.. فوقف أمامي مرعدا مبرقا يصيح بي أن أكون مهذبا.. وهاأنذا أراه الآن في خيالي كما كان وقت الحادث.. يضع فوق رأسه قبعة من القش اللامع، ويربط عنقه برباط من الحرير الأصفر.. ويلبس حذاء متقن الصنع له عنق طويل، وجبهة ممتقعة من شدة الغضب.. وها هو ذا يرفع عصاه الغليظة ويطوح بها نحو رأسي، فأتفادى الضربة بذراعي فتهوي في قوة على ذراعي، ويسمع لها صوت يدوي في أرجاء غرفة الدرس!. ويمسك الطلبة أنفاسهم من هول الضربة الوحشية.. وأشعر أنا بالألم الشديد، ويتعالى أنيني، ويكاد يصيبني الإغماء.. ويرفع المدرس عصاه مرة أخرى محاولا ضربي، ولكن أحد زملائي الكبار يثب نحوه ويقبض على ذراعه، ويمنعه بالقوة من معاودة الضرب، وهو يصيح "أيها الوغد الزنيم لقد كدت تحطم ذراعه"!.. فثار المدرس ثورة جامحة على "جيك" صديقي وزميلي الكبير الذي شل حركته.. ولم يستعمل المدرس كل قوته ضد الطالب الأقل منه قوة دون ريب، خشية إتلاف ملابسه الأنيقة التي يعتز بها!. وقد هاج الطلبة، واختل نظامهم، وخرج بي "چيك" وكثيرون غيره وأوصلوني البيت حيث أخبرت والدي، وقد غضبا في أول الأمر، ولكن عندما روى لهما "چيك" والآخرون ما حدث، وقد كانوا تحت تأثير الرعب مما أظهره ذلك المدرس من وحشية وقسوة، وأيد وصفهم الأثر البالغ الذي تركته الضربة فوق ذراعي، وعند

ذلك ذهب أبي إلى المدرسة ليناقش الأمر مع رئيس المدرسة.. وانتهى الأمر بامتناع المدرس بضعة أيام عن إيذاء التلاميذ بمثل هذه القسوة، ولكن ما لبث أن عاد إلى عادته القديمة التي تمتزج بدمه..

وتذكرني قسوة هذا المدرس بسيطرة أبي على الأسرة؛ فقد كان يتحكم في أفراد أسرته لا يترك لأحد منا أن يذهب مع الأصدقاء إلى الحفلات أو النزهة، بل يصر على أن يكون معنا كبير من الأسرة، هو إن الأم، أو من يثق فيه من الأقارب، لأننا كما يصفنا أشقياء أغبياء!.. وظل لا يتزحزح عن "مكان" القيادة، مكان الآمر الناهي، والطاغية المستبد في المحيط العائلي!.. يثور طول اليوم، وبعض الليل، يتكلم صاخبا ويصدر الأمر بسرعة مائتين وأربعين كلمة في الدقيقة الواحدة!

"ولكن اعتقادي الذي كان ملازما لي دائما في الطفولة والمراهقة وطور النضج هو أن الفرد لكي يعيش هانئا ومرتاح البال بين المستبدين القساة يجب أن يكون أكثر جبروتا وطغيانا.. إما أن يكون جبارا عاتيا أو عبدا ذليلا، وليس هناك حل وسط فيه سلام وأمن!.

"ولذا لم أكن ممتثلا لجبروت أبي وطغيانه ولا مستصوبا لكل ما تفرضه شخصيته وما يتخذه من أوضاع.. كما لا يمكن أن أقبل الحياة في البيئة العائلية عبدا رقيقا إلا إلى حين.. إلى الوقت الذي أبلغ فيه سن السادسة عشرة وهو سن دخولي الجامعة حيث انتقل من بيئة الطغيان إلى بيئة الجامعة، ولكن حتى هذا الوقت يجب أن أتحمل بضع سنوات من

"الحياة الشاقة" الخالية من السعادة، والمليئة بالثورة على الأوضاع والمعاملات.. فريسة لطغيان والدي وتمزيقه لكياني وتعذيبي.. كنت كالسجين الذي يخضع لنظام دقيق صارح ولكنه – أي السجين – يعمل سرا في أناة وصبر في حفر النفق الذي يقوده إلى الحرية!..

كنت في تذكراتي الماضية التي أسترجعها الآن لا أزال أذكر أن أكثر تلك الذكريات إيلاما لنفسي هي ما كانت متصلة بأبي، لأن كل معاملاته وتصرفاته معي كان من المستحيل أن يتم في يسر وسهولة وسرعة، كعادة الطغاة.. إن تبدل الطباع يتم بطريقة مشابهه لطريقة "الانصهار" بأن توضع قطعة المعدن المطلوب صهرها فوق نار بطيئة حتى تصل إلى الدرجة المطلوبة ومن ثم تحول بعد تبريدها في بطء أيضا إلى شكل جديد، متخذة القالب الأفضل وهذا هو ما يتم في عملية التحليل النفسي.

الفصل العاشر

اللهيب والمصهر

"إن قطعة النسيج الرقيقة تهتز جميعها عند لمس أي موضع منها، تماما كما هو الحال عند لمس نسيج العنكبوت"

توماس هاردي

كثيرون من "الأبناء" من لهم صفات الآباء إلى حد بعيد وهم سعداء، فائقو السعادة، لأن آباءهم كانوا كثيري العطف عليهم.. قلوبهم مليئة بحرارة حبهم.. أقوياء.. رجالا طيبين يفهمون الوظيفة الطبيعية لحياة الآباء.. للحياة الوالدية، أما أنا فقد كنت على النقيض من أولئك الأبناء.. كان مركزي يختلف عنهم اختلافا تاما، ومع ذلك فقد استطاع التحليل النفسي بطريقته السحرية الحاذقة أن يبث في نفسي الشجاعة لأن أنظر إلى صورة والدي على حقيقتها.. لم تكن صورة مستلطفة تجذب النظر، لقد كنت أيضا أراها في مرآة نفسي، وكذلك بالفراسة، فلا أجد فيها ما يستحب!.. وكنت أحاول أن أتعلم – وقد نجحت المحاولة – كيف يسود السلام بين أبي وبيني.. أمتص الطيب من معاملته لي، وأنبذ الخبيث منها، وحتى إذا اقتضت الضرورة أقبل كل اشتراطاته علي حتى لا يقع اصطدام بيننا، وأخيرا – ما زالت عقدة الأب التي كانت تلاومني في

طور الطفولة والمراهقة والحياة الجامعية – وعندما ساد الوئام والعطف والتفاهم بيني وبينه، أدركت أنني خطوت خطوة موفقة في طريق شفائي.

وحتى لا أضلل أو أخدع، أسارع مقررا بأن هذا التحول الباهر في مجرى حياتي العائلية، بيني وبين والدي، لم يكن نتيجة الاطلاع على كتاب يبين لي كيف "كيف أكتسب الأصدقاء" أو يرسم لي طريق سيري في "حياتي مع والدي".. نعم إن الكتب كثيرا ما تكون من العناصر المفيدة في التحليل النفسي، ويمكن الاعتماد عليها، ولكن – من تجاربي – استطعت أن أتبين أن نحسن حالة المريض النفساني لن يكون أبدا بالاكتفاء بالاطلاع على الكتب التي تعالج هذه الموضوعات فحسب بل بأن يعيش المرء انفعالاته المكبوتة من جديد في تجربة التحليل النفسي العملية.. وحتى يكون العلاج في مستوى شامل من الانفعالات التي تؤثر في المشاعر، طلب مني دكتور مكسويل أن أترك مؤقتا قراءة الكتب النفسية والمجلات التي تعالج مواضيع التحليل النفسي، والطب العقلي، وعلم النفس.. لقد كان يشعر أن التحليل يزيد من سرعة الخطى نحو الشفاء متى اتبع المريض النفسي التعليمات في دقة وخضوع تام.. وقال أن الكثيرين من العلماء النفسيين يطلبون من مرضاهم الامتناع عن الاطلاع على ما سطر في الكتب عن هذا التحليل، وهم مازالوا تحت العلاج، وبعد أن يتم الشفاء لهم يمكنهم أن يطلعوا على ما يريدون..

لم أستطع أن أتبين ما هي التطورات العلاجية التي مرت بي ورسخت في عقلي مستحوذة على كل حواسي خلال سنتين من علاجي النفسي، وهي التي حولت حياتي إلى ناحية الشفاء، فأصبحت أشعر بسعادة وراحة بال تسود ذكرياتي مع والدي، ومع جميع الأفراد الصغار والكبار، والمشهورين والمغمورين – حتى صرت الآن لا أخشى بأس الرؤساء ولا رجاء الشرطة من راكبي الدراجات البخارية الذين كان تتبعهم لي وأنا منطلق بسيارتي يملؤني رعبا!.. وأخذت أشعر شعورا واضحا بهذه التغيرات التي برزت في أفق حياتي أثناء علاجي النفسي.. كانت بعض هذه المشاعر تبدو لي بطيئة وئيدة الخطى، والبعض الآخر منفجرة سريعة الانطلاق.

وكنت في أحد أطوار العلاج – عندما كنت أناضل للتخلص من "عقدة الأب" – أشعر فجأة بأنني لا أقوى على توقيع أي "شيك" إلا بمجهود شاق.. كان القلم يبقى بين أصابعي فترة طويلة قبل أن أحركه بعد نضال طويل!.. بينما كنت أوقع الأوراق الأخرى في سهولة ويسر!.

وقد أعاد هذا إلى ذاكرتي حالات بعيدة التاريخ، أيام دراستي الجمعية، وهي حالات كنت فيها فريسة الغضب الشديد، عندما كان أبي يعارض بل يرفض التوقيع على "شيك" بمصاريفي الجامعية.. كان يناقش، وينتحل الأعذار، ويلعب بي كما يلعب القط بالفأر قبل القضاء عليه.. وأنصرف من أمامه لألحق القطار، وفي هذه اللحظة يكون قد وقع الشيك وقذف به إلي!. وعندئذ وقد وصل بي إلى حافة الهاوية وهو يعاند

أو يعبث – لست أدري – أشعر كما لو كانت كل خلايا جسمي وكل مشاعري قد انهارت بعد أن نزفت دما؛ فأثور، وتتملكني فكرة مسيطرة تدفعني إلى اعتزام مفارقة هذا الأب القاسي العابث بمشاعر ابنه وكرامته وشخصيته، فراق الأبد؛ حتى لا أعرض نفسي لمثل هذا الامتهان وهذه المذلة.. ولكن بعد وقت قصير تبرز أمامي تلك المؤثرات النفسية التي تسيطر على عواطفي نحو أمي، وأسرتي، وتربطني بهم برباط لا يمكن أن تفصم عراه.. وكذا النظرة البعيدة إلى مستقبلي كل أولاء كانت تنتصر على إصراري على الهجرة ضاربا بعصاي للطريق الذي يصل بي إلى المجهول في خضم هذا العالم!..

فلما رويت هذه الحوادث إلى الدكتور مكسويل في استفاضة، وذكرت له ما كنت أشعر به من آلام بعد ذلك وأنا أستعمل ذراعي اليمنى في توقيعات أو تجارب خاصة بعملي الكيمائي مع أساتذتي ثم بعد ذلك مع علماء الكيمياء في حقل التجارب الخاصة بالنباتات وما إلى ذلك.. لم يقل شيئا، واستمر يحلل نفسيتي كعادته في هدوء وصبر، فلما برزت "عقدة الأب" خلال العلاج أخذت آلام ذراعي تظهر كثيرا في مواقف عدة.. وبعد بضعة أسابيع أرغمت من شدة التصلب في ذراعي، على التوقف عن توقيع أذونات الصرف، ولكن ما لبثت هذه الظاهرة أن زالت في سرعة، أو كادت لا تحدث إلا قليلا، خلال بضعة شهور.. ثم تبين لي أنها بعد ذلك قد فارقتني إلى غير رجعة.. وأثناء تحليلي النفسي في مدى عاملين، برزت إلى السطح عقد كثيرة تتصل بحالات متعددة نتيجة للعوامل النفسية أو المخاوف المرضية، أو الاضطرابات الشخصية..

وهي عوامل بيولوجية ونفسية واجتماعية في آن معا -كما قال دكتور مكسويل – كالخوف المروع الذي يسيطر على النفس من رؤية الأفاعي أو رؤية رجل البوليس، والحادثة التي سأرويها هنا قد حدثت لي قبل التحليل.. وقبل أن تبرز عقدة الأب إلى السطح..

"عندما كنت منطلقا بسيارتي نحو المدينة، التقيت بأحد رجال البوليس فشعرت بتوتر في أعصابي، وملكتني رعدة من الخوف، حتى قبل أن يكلمني، ولما كلمني لم يطلب مني أكثر من أن أنقله معي إلى البلدة.. وبعد أن جلس بجواري تبينت فيه أحد الحراس الذين يتولون حراسة الشركة التي أعمل بها، ولذا فقد طلب مني في بساطة أخذه معي إلى البلدة"

وبعد مرور بضعة أيام على رواية هذه الحادثة القديمة شعرت بأن حالتي زادت سوءا حتى كنت إذا ما رأيت شرطيا وأنا في محل عام أشعر بدافع يحفزني إلى مغادرة المكان من شدة الرعب، ولكني كنت أناضل في يأس هذا التوتر في أعصابي، وأقاوم هذه المشاعر العصيبة. وبمساعدة دكتور مكسويل أمكنني أن أتبين أن رد الفعل الشديد هذا وما يكتنفه من عجب وغرابة، منشئوه "عقدة الأب".. ولذا فقد استطعت في بطء، ولكن في حزم وتصميم، أن أتخلص من خوفي عند رؤية رجل البوليس إلى الأبد.. لقد ألقيت به من فوق منكبي حيث ظل طويلا يمثل شبح الرعب، وقد زال إلى غير عودة!.. وقد كان هم دكتور مكسويل أن يزيل هذه العقدة من نفسي وقد نجح.. كان تملكها لزمامي، وسيطرتها

على نفسي هو السبب المباشر لمحاولاتي الفاشلة ضد عقدة السيطرة التي كنت أقاومها وأدفعها عني.. كانت عناصر مختلفة عديدة: الأب.. أخي الأكبر.. رؤسائي.. القضاة.. رجال البوليس.. علماء الطب المشهورين.. الأطباء النفسيون.. وغيرهم..

إن التحليل النفسي لم يرسم لي صورا جديدة عن والدي بحيث أحدث هذا التغيير نحوه، ولكنه ساعدني على استرجاع الكثير من الذكريات التي كانت تربطني وثيقا بذلك الوالد العتيد، فزالت كل آلام طفولتي التي سببتها "عقدة الأب".. زالت تلك الأيام التي كنت أمقتها لأنها كانت في اعتقادي مؤلمة لي.. زالت بعد أن تبين لي جليا معناها، وما كان القصد منها أنها كانت تصدر من أبي لغاية نبيلة البعد كله عن قسوة أب على ابنه.. كانت تصدر لتربي في نفسي كل ما يرجوه لي والدي من خير وتربية صالحة، وصار في مقدوري أخيرا أن أقول في صوت قوي النبرات: "هذا ما كان من أمر أبي معي.. وهذا ما كان يجب أن يكون"!.. وهكذا بعد أن وضعت فوق "المصهر" الذي يشتعل اللهب تحته أصبحت حرا طليقا من "عقدة الأب" التي كانت تهيمن على مشاعري

الفصل الحادي عشر

" روبين تليت "

"... ولكن الأصداء المتجاوبة بين روح وروح يظل رجع صداها يتردد مادامت الحياة"

توماس هاردي

إن ذكرياتي التي أسترجعها عن صورة والدي المرسومة في أعماق خيالي هي ذكريات بعيدة العهد، ولكنني لا أنساها أبدا.. مازلت أراها كأنها بنت اللحظة.. مازلت أذكر كيف كانت يقظته المبكرة في السابعة إلا الربع باستمرار رتيب في الصباح الباكر.. في انفجار مروع مدو!..

كان يستيقظ على صوت جرس "المنبه"، وأذكر في جلاء صيحاته الصباحية المجلجلة وهو يطلب البحث عن أزرار ياقة قميصه التي يفتقدها ولا يجدها صارخا "فريدا.. فريدا" في نبرات قصيرة حادة تتدرج في العلو كما لو كانت لحنا صاخبا.. فيها لهجة الشدة والأمر!.. ولم يكن يدعوه إلى الكف عن إطلاق هذه القنابل أن يرى أمي بجواره عند أول صرخة وهي تبحث عن أزرار القميص.. وكان دوي صرخاته ينتقل صداه في جميع أرجاء البيت معلنا للجميع في تأكيد أنه أستيقظ الآن!.

وهذه الشكاوى القصير الحادة التي تشبه طلقات الرصاص، كان يحلو له أن يعبر بها عن جزعه لأنه سوف لا يصل إلى متجره في الميعاد بسبب هذه المؤامرات التي تحاك حوله لتأخير موعد إفطاره! وكان يعبر عن هذه الشكاوى بصوته المرتفع، ولهجته السريعة في إطلاق الألفاظ من فمه بسرعة المدفع الرشاش!

لقد التقيت بالكثيرين من المختزلين الذين يفخرون بسرعتهم في الكتابة، ولكني أشك في أن أحدا منهم يستطيع أن يبز أبي في سرعة إلقائه "مونولوجه" الصباحي.. ويمكنني كذلك أن أقرر أنني ما زلت حتى الآن أشعر بانتفاضة أعصابي عندما كنت أسمع موشحه الصباحي وهو يردد قوله "فريدا.. فريدا.. أين الملح؟ " وهذه، لو حسبت لها الميقات، لكانت مائتين وأربعين كلمة في الدقيقة كما قلت؛ أي بسرعة تعادل ثلاث مرات سرعة دقات قلب الإنسان!..

كان وقت تناول وجبة الإفطار عبارة عن شكوى طويلة عن نوع الطعام وصفاته، مع أن طعام الإفطار تستطيع، حتى الطاهية العديمة الخبرة، أن تقوم بتهيئته على ما يرام، وأمي معروفة بأنها بارعة جدا في فنون الطهي!. ومع هذا فإن أبي العنيد "روبين نايت" لم يكن يوفر انتقاده، بل لا بد له من الشكوى التي أصبحت لازمة من لوازمه.. إنه ينتقد الليمون الهندي، والحبوب المطهوة، والبيض، وغيرها، ولكنه يحتفظ بشكواه الكبرى عندما يصل إلى احتساء القهوة!.. إنه ينفجر ثائرا ليقول أن معدته لا يمكن أن تهضم "هذا النوع من البن الردئ".. وبعد

أن تتذوق أمي المسكينة القهوة فلا تجد فيها أية غضاضة أو عيب، يظل ثائرا متهما لها بأنها بدلا من ابتياع أحسن أنواع البن، ابتاعت نوعا رديئا مما تبيعه حوانيت الجمعيات التعاونية بأثمان زهيدة!. ثم يزداد ضجة وهو يشرح كرمه، وعدم ضنه عليها في الصرف لتشتري الطعام الجيد المحروم منه دائما!. وبعد احتساء قدحين أو ثلاثة من القهوة التي يدعى أن بنها ردئ يثب واقفا على قدميه ويندفع إلى الخارج كالعاصفة وهو يصيح بأنه تأخر عن موعده قائلا: "لقد تأخرت.. لقد تأخرت.. إنكم جميعا السبب في هذا التأخير.. تألبتم على لتأخروني عن موعدي مرة أخرى"!..

وقبل أن يصل إلى الباب الخارجي يعود صاخبا لأنه ألقى نفسه بدون قبعة وبدون معطف!.. ولكن أمي كانت قد تنبهت لذلك فأنت إليه بما أنساه الشيطان أن يأخذه!. ويغادر البيت أخيرا بعد لعنات وسباب، ولكنه يعود بعد برهة صاخبا ثائرا قبل أن يزول توتر أعصابنا الذي سببه هذا الوالد الثائر الشتام السليط ليقول في صراخ متتابع بسرعته المعتادة: "المطر.. المطر.. أسرعوا.. مظلتي.. لعنة الله على ذلك اللعين الذي استعار مظلتي".

ولا نفهم من الذي يقصده بهذا القول، ومن هو هذا اللعين الذي استعار مظلته، ولكننا نرى أمي المسكينة تبرز لنا وهي تحمل المظلة!. ويغادر الأب العتيد البيت وهو ينثر خطاه، ويقذف بألفاظ السباب.. كان أبي لا يتوقف عن توزيع شتائمه.. هذه الشتائم التي اعتادها وأصبحت

من لوازمه والتي يتدفق سيلها في غير انقطاع بل يزداد حتى وهو يعمل في مكتبه بالمتجر!.. وكان صوته وحركة سيره لا يمكن إلا أن تتسما بالسرعة الفائقة، وهو على اعتقاد تام بأن أوامره وطلباته الدائمة تنفذ في طاعة عمياء مع الاحترام والتبجيل والزلفى من منفذي هذه الأوامر، موظفي ومستخدمي متجره..

وكانت العبارات المعسولة تتناثر من أحد جانبي فمه حين يرد على أحد موظفيه وهو يستشيره بشأن صفقة كبيرة، وحين تتم الصفقة تنطلق من الجانب الآخر عبارات السباب، وهو يلعن نضاله وجهوده التي يرغم عليها لتوفير أسباب الرخاء والرفاهية لأولاده وبناته، وهو مع ذلك لا يمكن أن يتنبأ لهم بحياة رغدة إذ ربما كان مصيرهم، أو مصير أحدهم على الأقل، إلى اللصوصية أو إدمان المسكرات، وينتهي به هو أيضا معهم إلى العودة لحياة المزرعة الفقيرة كما كان!..

كان إذا ما تمت الصفقة يثب من فوق كرسيه وهو يلعن الحظ، والأولاد، وموظفي ومستخدمي المتجر لأنهم ضغطوا عليه حتى باع السلعة بثمن زهيد لا يعتبر ثمنا!.. وإذا ما رفض العميل الشراء وعدل عن الصفقة اهتزت
أسلاك التليفون بسبب العميل وذويه من والدين وأولاد وبنات!

وكان أبي "روبين نايت" لا يعترف مطلقا بأن فشل الصفقة مرجعه إلى حاجته إلى قوة الإقناع، أو نقص في براعته وذكائه، بل إلى خطا

العميل!.. ورغم كل ذلك فقد أثرى أبي من تجارته لأنه كان من الدهاء والدراية بحيث كان في مكنته أن يخفي نزعة العنف والشراسة فيه وراء قناع من اللين ومعسول القول عندما يتعامل شخصيا مع عملائه.. كانت الشخصية العنيفة الثائرة تختفي في معاملاته التجارية!. وعلاوة على ذلك فقد عاش في عهد انتعاش الاقتصاد وكان طيلة حياته الاقتصادية على صداقة وطيدة مع الحظ الذي لازمه من أول عهده بالتجارة وظل رفيقا مخلصا!.

إن لكل فرد "شخصيته الرسمية"، "الواجهة" الجميلة التي يظهرها للعالم ليغريه ويلفت نظره.. وكان والدي من المهارة بحيث كان يحوز إعجاب الناس بمظهره، وحسن هندامه.. أضف إلى ذلك لهجته الرقيقة، ومعاملته اللينة التي يتخذها دائما مع الأثرياء وذوي النفوذ من أهل "ميدل تاون"، ولذا فقد كان موضع ترحيب أصحاب المصارف وأصدقائهم، يخطبون وده ويتقربون منه، ويحسنون لقاءه، ومعاملاته المالية معهم لا تلقى صعوبة، وإنما تتم على نطاق واسع غير مقيد!..

ولكن أبين كيف أثرت أعمال أبي في مصيري، كان من المحتم أن أشرح تصرفاته في جلاء وإسهاب، لأن هذه التصرفات جعلت مني مخلوقا محطما منبوذا متجها إلى طريق الدمار، والتحليل النفسي، وحده هو الذي استطاع أن ينتشلني من هذا المصير المروع..

إن من الخير لنا أن ندرك الأفكار الزائفة التي تسيطر على عقولنا وتمتزج بالدماء التي تجري في عروقنا وكم هي وليدة الإرث الوالدي.. أجل لقد ورثتها عن والدي ما في هذا شك، وأنا هنا أقرر حادثة وقعت لي في طفولتي كشفت عن رد الفعل إزاء الملونين والسود الزنوج.. ولو أنني في طفولتي كنت لا أتصل بعائلات السود اتصالا مباشرا إلا أنني كنت أنظر بعين الإعجاب للرياضيين منهم، ورجال الموسيقى والفنانين.. وكنت أستنكر في مرارة معاملة والدي لهم ونظرته إليهم.. إذ كان يجد لذة فائقة في التسلية الوقحة الوحشية التي يشاهدها في معارض السلع التي تستخدم في الإعلان عن نفسها رجلا زنجيا عاري الرأس وفوقه كتبت جملة تدل على مدى نقص العواطف الإنسانية، والوحشية الموجهة إلى مخلوقات بشرية، إذ تقول الجملة التي تعلن عن السلع "أصب مكان الأغنية كي يمكن أن تحصل على سيجار".. والمقصود هنا رأس الزنجي الذي يبرز من فجوة، فيطلق عليها الزائر اللاهي كرة صلبة ليصيبها بينما يحاول الزنجي التعس التراجع حتى لا تصيبه.. وغالبا ما تكون القذيفة أسرع انطلاقا من التراجع فتصيب الرأس ويعلو صراخ الزنجي في تنغم، وهذا التأوه أو الصراخ هو الأغنية!.

وكنت ذات مرة مع أبي نزور متنزها على مبعدة قليلة من مدينة "ميدل تاون" فالتقينا بأحد هذه المشاهد المجردة من الإنسانية، وكانت نظراتي إليها تفيض مقتا واحتجاجا وكراهية بعكس والدي الذي كان يجد فيها لذة وترفيها، ويظل يتغنى بذكر هذه اللذة طويلا، وكانت تشبع نهمه

إلى حد بعيد وتتمشى مع نظرياته الخاطئة عن تفوق السلالات والأجناس وسموها!

وبعد مرور عشرين عاما على هذا الحادث كنت أقول للدكتور مكسويل وأنا مستلق على المضجع:

"أنا غاضب من بعض الناس، لا أعرف تماما من هو، أشعر برغبة ملحة في سبه، ولكن ألفاظ السباب التي أهم بنطقها لا يليق أن تصدر مني لا أستطيع لفظها، لأن أي إنسان مهذب لا يرغب في أن يقولها، ولكني لا أجد مفرا من ذلك. إنه أسود زنيم.. ملعون"

لما صارحت الدكتور مكسويل بذلك في حرية تامة، شعرت بتوتر نفسي وبحزن وأسف على ما بدر مني دون إدراك، ولكن هذا ساعدني على استرجاع ذكرياتي. استرجعت ما كان يفعله أبي قديما وأنا طفل، والأفكار الشاذة، ومشاهد الأفلام السينمائية التي دعمتها.. وبمجرد تذكر ذلك وإدراك ما ينطوي عليه كنت أشعر بقدرتي على سحق تلك الأفكار وإبادتها، وهذه كانت أول خطوة ثم تلتها الخطوات النهائية التي أتت وئيدة موفقة ناجحة نتيجة التحليل النفسي.

وها هي النتيجة اليوم، لقد أصبحت طبيعيا، أقل صلابة في معاملتي وعلاقتي بالسود الذين يقومون بأعمال الزراعة في الحقول، والذين يعملون معي في المعمل.. وكنت إذا ما حضرت اجتماعا من اجتماعات الجمعية الكيميائية أشعر بصفاء وغبطة وأنا أعمل ومعي الزملاء

الكيميائيون من السود وعلى هذا فقد كانت كراهية أبي للزنوج موضع حقدي.. وظل هذا الحقد متأججا في صدري حتى حدثت حادثة كان لها وقع خاص في نفسي..

قبل زيارتي مع أبي للمتنزه وكشفي عن مبلغ احتقاره وكرهه للسود ببضعة أسابيع، استطعت اكتشاف نوع الأب الذي أريده ففي يوم ما، وأنا في سن العاشرة .. كنت عائدا من المدرسة فشاهدت زحاما شديدا حول عربة من عربات البوليس، إذ كان أحدهم يحاول سحب أحد الزنوج إلى السيارة وهو في حالة سكر شديد مستعملا معه قسوة بالغة الوحشية، وكان هذا الشرطي بالذات معروفا بأنه أسوأ رجال البوليس المدينة خلقا وأشدهم فظاظة، وبينما كان الرجل الغائب عن الوعي تقريبا يدفع دفعا كأنه حيوان، سقط على جانب الطريق، وأمسك وهو يسقط بكم سترة رجل البوليس فمزقه دون قصد طبعا، ولكن رجل البوليس القاسي القلب أخذ يكيل له اللكمات حتى أدمى فمه وأنفه ووجهه فأصبح كالشاة الخارجة من المذبح!..

وكان المشاهدون من الجمهور يلتقطون أنفاسهم، ولكنهم لم يتدخلوا أو يحتجوا لعلمهم بسوء خلق ذلك الشرطي وسرعته في إشهار غدارته، ولبثوا لا يتفوهون ببنت شفة إزاء هذه البربرية، وفي هذه اللحظة بالذات رأيت رجلا فارع الطول، وليس من أهل "ميدل تاون" – كما هو واضح من مظهره وهندامه – يتقدم نحو رجل البوليس ويقول في صوت هادئ مهذب: "أطلب منك الكف عن ضرب هذا الرجل التعس"..

فزمجر رجل الشرطة وأخذ ينظر إلى الرجل الغريب في قحة، ثم واصل ضرب الرجل الزنجي!.. فعاد السيد المهذب يقول في صوت أكثر ارتفاعا وفيه لهجة الأمر الصارم: " كمواطن، آمرك أن تعامل أسيرك أو سجينك معاملة فيها إنسانية"..

وكان في نبرات صوته ولهجته الآمرة ووقفته وتحفزه إزاء رجل البوليس ما أشعر الجميع بأنه يوشك أن يجرد رجل الشرطة من سلاحه، ويلقي به أرضا ويظهر أن رجل البوليس المتغطرس أدرك هذا، إذ سرعان ما ظهر عليه التراجع وقال في لهجة اعتذار: "إنه مزق سترتي الرسمية وهي جريمة يعاقب عليها"

وما لبث أن دفع السكير إلى العربة وأمر سائقها بالسير! فصاح الجمهور في سخط وعداء، ثم هتفوا تحية للبطل الغريب الذي حول الموقف إلى هذه النهاية، وأسرعت نحو الرجل الغريب لأتحدث إليه وأشكره؛ فأخذ يتفرس في وجهي، وحاولت أن أتكلم ولكني كنت فريسة التأثر الشديد فشعرت بضيق في صدري، وغصة في حلقي، واستعصى علي القول وأخذت أغالب دموعي!

وأدرك الرجل كل شيء؛ فوضع يده فوق كتفي قرابة دقيقة ثم غمغم يقول: "إن الحياة فيها من القسوة الكفاية.. وهي ليست في حاجة إلى وحشية أو بربرية، فعلى المرء أن يناضل هذه الحياة"

واستقل سيارته التي كانت تحمل لوحة إقليم بعيد، ولم نره بعد ذلك أبدا، كما أننا لم نتعرف على شخصيته، فلا شك أنها كانت شخصية عظيمة، وقد ظل هذا السيد البطل عائشا في أعماق كياني وفي نفوس الآخرين دون ريب، إذ تعلمنا منه الشجاعة والعدل والحب الأبوي.

وقد مرت بي سنوات عديدة قبل أن أعثر على أب طيب حتى وجدت الأب الصالح في دكتور "جولد شميدت" مرة أخرى، ثم أخيرا في دكتور مكسويل محللي النفسي.

الفصل الثاني عشر

الأم

"عندما كنا أجنة يلفنا ظلام الرحم لم نكن نعرف وجه الأم،
ولما تركنا السجن القابع في جوفنا إلى نور الدنيا.. هل انتقلنا
حقا إلى سجن آخر هو سجن الأرض؟"

توماس وولف

خلال العام الأول من تحليلي النفسي كان دكتور مكسويل يحاول دائما أن يترك لي قيادة التحدث إليه عن موضوع جديد لم يسبق أن طرقته من قبل، وقد كان هذا يتم حقا عندما تتوفر عناصر الألم وثورة نفسي المتفجرة لسبب ما، وكانت طريقته للحصول على معلومات جديدة أن يضع أفكاره أو اتجاهاته وأهدافه في قالب أسئلة ليكون موقنا بأنه سيظفر حتما بما يمكن أن يجول في نفسي من أفكار في هذه اللحظات بالذات..

وفي العام الثاني من العلاج، عندما أصبح في مقدوري أن أفتح جراحي القديمة وأكشف عن الخبيء من متاعبي دون حذر، وعندئذ فقط بدأ دكتور مكسويل يكون معلومات مباشرة وتفسيرات صميمة، ولكنه مع

ذلك لم يستطع إلا في الشهور الأخيرة من التحليل أن يدلي إلي باقتراحات يعتقد أنها تخفف الحالة أو تحسنها..

ومرت شهور طويلة من التحليل قبل أن أقدم له نوعا من الخواطر أو الأحلام التي تتصل بأمي، وقد حاول دكتور مكسويل – أحيانا – قبل ذلك أن يدفعني في لباقة إلى التحدث عنها، عن أمي، ولكنه كأن يفشل دائما فشلا تاما، لأنني عندما قدمت نفسي للتحليل كنت شديد الاعتقاد بأن مشكلتي تتصل اتصالا وثيقا بأبي، وبالحرب التي كانت دائما أبدا ناشبة بيني وبينه، أما علاقتي بأمي فقد كانت علاقة متينة صافية الأديم..

وظل دكتور مكسويل بين كل وقت وآخر يحاول جاهدا أن ينوع حديثه أو نقاشه معي عن موضوع المدرسة "مرجريت" حتى يظفر بتفسير أوسع ولكنه لم يظفر إلا بالقليل التافه.. وكنت كلما طرقت باب التحدث عنها يسألني المزيد ويقول: "هل هناك سبب آخر يدفعك إلى حبك الشديد لتلك المدرسة التي في سن والدتك؟"

ولكنني كنت لا أزال عاجزا عن الإدلاء بأي سبب آخر عن هذه العلاقة الجنسية التي نشأت بيننا وأنا في طور المراهقة! ويلاحظ أنني بعد أن قطعت ثمانية شهور من المرحلة العلاجية الأولى، لاحظت أنني قد تخففت كثيرا من التوتر النفسي والقلق وما كان ينتابني من هواجس وجزع، فحسبت أنني شفيت، وبدأت أشعر بالضجر من قضاء الساعات مع دكتور مكسويل في العلاج بعد أن كنت أتلهف على لقائه وأكره

الابتعاد عنه!. وبدأ الصراع مكشوفا إلى حد بعيد بيني وبين أبي.. وظهرت عقد نفسية أخرى وضعت موضع الامتحان.. أمكن الوصول إلى تحليل القليل منها، وقد استطعت أن أظفر بالتحرر من الكثير من هواجسي وحالات جزعي التي كانت تنتابني نهارا ومن حالات الكابوس التي كنت فريسة لها خلال أحلامي الليلية؛ فكان من السهل الاعتقاد بأنني شفيت، ربما لحد ما، وهذه حالة نادرة لأن من المفروض أن التحليل النفسي لشخص ما، لا يمكن أن يتم في أقل من عام وأنه في أغلب الحالات قد يمتد إلى عامين أو ثلاثة..

ورغم هذه المتناقضات فقد كنت بعد مرور ثمانية شهور فقط من العلاج أحاول أن أقنع نفسي بأني ضربت الرقم القياسي في سرعة الشفاء!.. ولكني بعد أن أعملت عقلي تبين لي أنني كنت على خطأ، وما كان الأمر معي إلا دفعا للأمور في تسرع بقصد الشفاء العاجل قصير الأمد، ولكني كنت مقتنعا تماما بالفكرة.

وأخيرا صارحت دكتور مكسويل بكل ما يعتمل في عقلي وما أشعر به، فكان جوابه حاسما محددا وموجزا فقال: "إن حالتك في تحسن، ولكن شفاءك لم يتم بعد، وغاية ما يمكن أن توصف به حالتك هو أنك أخذت تبدي وعيا واستبصارا متزايدا بمشكلاتك الانفعالية.. والأمل يملأ نفسي في أنك سوف تحصل على نتيجة سارة، ولكن لا يمكنني أن أحدد الوقت لشفائك التام، وقد سبق أن أخبرتك، بل حذرتك لكي تهيئ

نفسك لتلقي خبرا سارا وهو أن علاجك ربما لا يطول أكثر من ثمانية عشر شهرا أو عامين"..

ثم استطرد يقول بعد أن غير من لهجته التي مالت إلى الرقة: "وللآن لم نعرف شيئا في الحقيقة.. أي شيء.. عن أمك.. وعندما تتزوج يجب أن تتأكد أنك تزوجت "زوجة" لا رمزا أو بديلا لأمك، إن هذا يحدث كثيرا ومن المحتمل أنك لاحظت ذلك".

وبعد أسابيع عديدة "دخلت" في طور كله عصبية وقلق، وكان علي أن أرغم نفسي أن أدقق في تنفيذ مواعيدي المحددة مع الدكتور مكسويل، وفوق المضجع كانت خواطري تقاطعها وتعطل سيرها من لحظات الصمت، وهذا غالبا ما يحدث وأنا استجمع خواطري الحرة وألم شتاتها، لأني كنت شاعرا في نفسي بأنني عن طواعية، أحاول إغفال بعض الخواطر والآراء المهمة، بأن أسهل لها طريق الإفلات من حديثي.. وخلال هذا الوقت كانت لدي رغبة ملحة في أن أرى صاحباتي القدامى واجتمع بهن، ووجدت نفسي محاصرا من جميع الجهات بالعديد من النزوات الجنسية! .

وأخيرا، وفي جلسة تحليلية، كانت إحدى الصور الحادة القاسية تطفو في عقلي فشعرت بعدم الارتياح إليها، وتبادر إلى ذهني أن أتركها تمر سريعا دون تعليق عليها، ولكني وجدت نفسي أقبض عليها في اللحظة الأخيرة وهي في طريق الاختفاء من ذاكرتي وعقلي الواعي:

"رأيت نفسي في حانوت حلاق، صبيا في ملابس بحار، شعر رأسي المجعد ذي الحلقات قد قص لتوه، وهذه الحلقات من الشعر قدمها الحلاق لأمي التي انفجرت باكية!. وأصابني انزعاج حتى ملكتني رغبة في الفرار إلى البيت.. وبعد أرتني أمي هذه الحلقات من شعري وهي موضوعة في علبة وقالت أنها ستحتفظ بها كتذكار لطفولتي، وأنا الآن أشعر بمضض وألم يا دكتور مكسويل، لأنني أفكر الآن في أنني وقتئذ كنت راغبا أشد الرغبة في أن ارتدي سروالا طويلا كالصبيان الكبار، ولكن أمي عارضت وقتذاك حتى اضطرت أخيرا بعد أن طالت ساقاي وذراعاي إلى الإذعان لرغبتي التي لم تستطع مقاومتها، ولكني مازلت حتى هذه اللحظة ألوم والدي وأحسب أنه هو الذي كان يمانع في ارتدائي السروال الطويل، ولكن ظهر أنها كانت أمي، وأحسب أنها كانت راغبة في أن يظل أولادها أطفالا لتكون هي صغيرة السن!"

ولما سمع مني دكتور مكسويل هذه الخواطر البعيدة كان سروره لا يقدر لأنه قد استطاع أن يستخرج من أعماقي مثل هذه الخواطر المتصلة بأمي وقال:

"أحسب أن لك القليل من المشاكل وراء كل ما ذكرت، تماما كما هي الحال مع كل فرد نشأ في مثل بيئتنا.. ألا تكون فريسة تلك الأغنيات التي ترددها الأمهات في تدليل صغارهن لجلب النوم إلى جفونهم لو لم تكن هناك تلك الأعصبة الشائعة بين الأمهات، ولكن المهم الآن أن نكشف الغطاء عن رد الفعل المعين لديك ونوعه ونترك

جانبا الحديث عن الاتجاهات الاجتماعية العامة. وحالما تتخلص من متاعبك الشخصية يكون في مقدورك أن تتفهم ذلك العصاب الاجتماعي بمقدار أبعد مدى"..

فقالت: "هل تعلم يا دكتور مكسويل أن هناك شيئا غريبا يدعوك لدهشتك!.. شيئا أخفيته عنك ولم أذكره لك!؟ خلال الشهر الماضي شعرت بعذاب شديد وأنا أهم بالذهاب إلى حانوت الحلاقة لقص شعر رأسي، كنت شاعرا بجزع شديد، أو ربما بألم عندما طرأت على فكرة الذهاب للحلاق.. وأخذت أماطل وأطيل حبل التأخير قدر استطاعتي حتى لم يكن في الإمكان أن أتأخر طويلا.. وأخيرا ذهبت للحلاق لقص شعري، ولكن ليس إلى حلاقي الخاص المعتاد، وهو الذي يواجه حانوته الشارع الرئيسي، بل إلى آخر يقع في "بدروم لإحدى العمارات بعيدا عن المارة في الطريق العام، وبرغم هذا كنت أشعر بأنني غير مستريح خلال الدقائق القليلة الأولى، وتملكني اعتقاد شديد بأنني لن أستطيع احتمال البقاء تحت مقص الرجل أكثر من ذلك، وأنا أعجب الآن هل هذا الشعور له علاقة بأول عهدي بالحلاق عندما قص حلقات شعري وأنا طفل؟..

فأجاب دكتور مكسويل: "أحسب أن هذا ممكن، لأن اليوم الذي قصصت فيه شعر رأسك الطويل ذي الحلقات كان من الأيام المهمة عندك لأنه رسب في عقل أمك رامزا – وأظنك أدركت ذلك أيضا – إلى التغيير الذي طرأ عليك من التحول من صبية إلى صبي، ومن ثم كان

عليك أن تواجه مسئوليات لم تكن تعرفها، وهي دخولك المدرسة، وقد عرفنا كم كان ذلك الطور شديد التأثير عليك في أيامك الأولى.. أول عهدك بالمدرسة.. لقد برهن على أنه أقسى وقت في حياتك كطفل، ولم يهدأ روعك وتستقر الطمأنينة في قلبك الصغير، إلا بعد أن أجلستك المدرسة على حجرها، ومثلت دور الأم معك.."

وبمساعدة مثل هذه "الدفعات" الكثيرة الرقيقة من دكتور مكسويل أصبح في مكنتي أن أكشف الغطاء، وألقي الضوء على سلسلة طويلة من الحوادث التي تصور كراهة أمي وإحجامها الشديد في أن أنتقل من طور الطفولة إلى طور النضج! ولقد كانت تكره أن تسمح لي بقضاء عطلة الأسبوع في رفقة صحابي ورفقائي في المدرسة لأنها كانت شديدة الغلو في وصف أخطار مغامراتنا وهي لا تعدو أن تكون غير قنص الطيور أو تسلق الجبال، وكانت تنتقد العطلات، وتصفها بأنها نوع من الترفيه والترف الكثير!.. وتعارض أكثر وبصفة خاصة فكرة المعسكرات الصيفية "المخيمات" حيث يسود الجو العائلي لصالح الأطفال!. كما أنها ظلت لسنين عديدة ترفض في إصرار أن يكون لي "مصروف يد" مستقل، رغم أنني أعرف أن أمي كانت كريمة لا تضن علي بأي شيء، ولكنها كانت تزعجني كثيرا لاضطراري إلى أن أطلب منها كل مليم من مصروفي!..

وكانت – وهذه أكبر المصائب التي مرت في حياتي – تبكي في مرارة وهي تراقب نموي، وتقدمي في السن، ثم تركي البيت إلى الجامعة الداخلية!.. ولما كانت من أسرة كل أفرادها وصلوا إلى ثقافة عالية، فقد

كانت دون شك تود لأبنائها هذه الدراسة أيضا، ورغم ذلك.. رغم دون شك تود لأبنائها هذه الدراسة أيضا، ورغم ذلك، رغم حبها لثقافة العالية التي سادت حياة أسرتها منذ أجيال، كان كرهها لفراقي يتعارض مع تفانيها في تلقي العلم!.. كانت تود الاحتفاظ ببنيها بجوارها لكثرة حنوها وأنانيتها فلم تكن تدخر وسعا في تصوير الحياة بين ربوع "ميدل تاون" تصويرا ممتازا وترسم لنا صورا مخيفة عن التحول عن هذا الجو المشرق البديع بين الأهل في المدينة، إلى جو الجامعة حيث لا إشراق ولا إبداع ولا أمان.. كما أنها لم تفكر قط أو تناقش أبدا مع أحدنا أهمية ترك الأمور لنا لتساعدنا على خلق شخصية مستقلة أو على الأقل تنمي فيه الرغبة في أن يكون شاعرا بهذه الشخصية وهو في سن السادسة عشرة أو الثامنة عشرة!..

ولما جمعت شتات هذه الأفكار، أو بالأصح مقدمات هذه الخواطر التي كانت مبعثرة في نقطة تجمع أو بؤرة اشتد غضبي على أمي، ولكن دكتور مكسويل حولني إلى الناحية المستقيمة، وقادني إلى طريق الحقائق مرة أخرى، موضحا لي كيف أنني وأمي لا نلتقي إلا نادرا الآن، وأن سيطرتها علي أصبحت في الحقيقة غير مهيمنة كما كانت قبل بلوغي سن الرشد.. إن أمي لا يمكن أن تتغير أبدا، وهذه حقيقة واقعة يجب أن أتقبلها، ولو أن طبيعة سيطرتها ونفوذها في الوقت الحاضر، وهذه الظاهرة يجب أن تكون مفهومة وواضحة، ومن الجلي أن دكتور مكسويل يطلب إلى أن أتعمق في فهمي لها؛ فقال: "إن لديك قسطا كبيرا من المشاعر وليدة الاعتماد على الغير، هو أمك.. هذه المشاعر

الخاضعة الصاغرة في حاجة إلى إعادة توجيه، إنها تبرز واثبة من بين ثنايا ماضيك المبكر وأنت طفل تعيش في كنف أمك، وقد أصبحت هذه ظاهرة عادية، وكانت أمك تتوقع أن تتركها الدنيا دون إزعاج قابعة في بيتها الصغير الذي يسوده السلام.. وأحسب أنك حاولت أن تكون لك أسرة وبيتا ضمن نطاق المعمل الذي أنشأته وأسسته – على غرار أسرتك.. هذا بديع إلى حد ما.. ولكنك لا تلبث أن تصطدم بالصعاب في عملك إذا ما أخذت تطبق على الناس والمشاكل نفس الطرق التي كنت تطبقها أو تفرض عليك وأنت في طور الطفولة.. مثال ذلك: أليس من الجائز أن تكون بعض المشادات التي تقع بينك وبين رؤسائك في العمل نتيجة لأنك تعتبرهم في منزلة الآباء؟ فلو صحت هذه الفكرة لأدركنا كيف نشأت تلك المنازعات والمشادات التي تنشب بينك وبين رؤسائك، وهي تدل على أنك تميل أيضا إلى الدفاع عن مرؤوسيك.. وبعبارة أصح تقاوم القوي وتناجزه بينما تقف إلى جانب الضعيف وتسنده!. إن هذا عمل يستحق أن يفحص ويسبر غوره.. يستحق أن يكون فهمه عميقا، لأنك إن استطعت أن تنشئ علاقة طيبة مرنة مع من هم معك في العمل كسبت نصف معركتك، وبعبارة أوضح كنت قد بذلت كل مواهبك وذكائك في سبيل العلم وتفرغت له.. ولذا إذا ما نشأ خلاف أو نشب احتجاج بينك وبين رئيس لك في العمل كان من شأن تلك العلاقة الطيبة التي غرستها في نفوس الآخرين أن تحمل عنك العبء الثقيل، لأنه – أي ذلك الرئيس – لا يستطيع إلا أن يجد سمة الصدق ظاهرة تماما فيما أديت من أعمال فرضخ مقتنعا.. وهذا واضح

لأنك إذا ما كرست نفسك لعملك والمشاكل بعيدة عنك من المحيطين بك، وليس أمامك غير ما قد يمكن أن ينشأ بينك وبين رئيسك من بعض الاختلافات في النظريات، كان من السهل عليك أن تلقاه وتقنعه، وهذا سهل ميسور لأنك واثق من إتقان عملك الذي تم في هدوء. ولا شك في نجاحك وكسبك للمعركة"..

ولكني بعد كل هذا القول من دكتور مكسويل بقيت عندي الرغبة في أن أنشد من اعتمد عليه.. الرغبة في أن أجد من يرعاني، وظلت هذه الرغبة ملازمة لي في المدة الباقية من علاجي، وكان دكتور مكسويل لا يكف عن ملاحقتها دون هوادة منذ بدأ يعلم هذه العقدة.. وقد أوضح لي بأنه ولو أن علاقتي بوالدي قد انتهت، إلا أن طور الطفولة وأوضاعه كان لا يزال يؤثر على حالتي النفسية ويهيمن على أعصابي! وكان من الجلي أنني أمجد وأشيد بموضوع الاعتماد على الغير، لأن هذا الاعتماد إنما ينصب على أمي فقط، وهي التي أكن لها حبا عظيما، واحتراما لا يقدر!.

فقلت للدكتور مكسويل: "إنك على حق تام فيما ذكرت عن رأيك الخاص في ظاهرة الاعتماد على الغير التي ما زالت تلازمني يا دكتور مكسويل، وفي استطاعتي أن أسترجع بعض ذكريات الأمسيات العديدة التي كانت أمي تخلو فيها إلي لتقول لي في إلحاح وإغراء كم يكون من المبدع المدهش أن أظفر بزوجة وارثة!. هذه وجهة نظرها فيما ترجو لبنيها من زيجات.. يجب أن تكون الزوجة غنية أما الحب فلا قيمة له

في اعتبارها، ولو أن ذكره كان يأتي على لسانها ولكن في الدرجة الثانية من الاعتبار، وهاأنذا الآن أرى شيئا لم أكن أتبينه فيما مضى لعدم وضوحه بالمرة أن أمي حقا كانت تنشد لي الضمان العائلي في حياتي حتى على حساب الاعتماد على زوجه ثرية وعلى أسرتها، ولكنها كانت تنشد أيضا ضمانا لها هي الأخرى، وهو أن يكون أبناؤها أثرياء، أصابوا الثراء من وراء زواجهم من وريثات"

وقد وافق دكتور مكسويل على أن أمي في هذا التصرف أو هذه الرغبة التي تهدف إليها كانت كبقية الأمهات الأخريات، شديدة الاهتمام بأن تضع هذه الرغبة موضع الاعتبار الأول باستمرار وإلحاح، على أنها السبيل السديد إلى الضمان العائلي ورغد الحياة، وقال: "إن القليل من المال فيه الكفاية، والقناعة شيء طيب، ولكن عادة التهافت على كسب الثروة، والاهتمام بالحالة المالية.. أي بعبارة أصح لغة الأرقام، كانت دائما متأصلة كالمرض الخبيث في إحساسات الأفراد وعواطفهم، وأنا أشك بعد الذي سمعته منك عن الوضع الذي كانت أمك تتخذه لنفسها مدفوعة بشدة حرصها على سعادة أبنائها وضمان مستقبلهم.. أشك في أنك أنت نفسك قد اكتنفت حياتك بعض هذه المخاوف التي تدعوك إلى نشدان الضمان العائلي بواسطة الثروة لدفع عوادي الزمن!.. ولكن الفرصة أمامك لاستئصال الأشكال العصابية التي لديك بشأن المال. وهذا من شأنه أن يكون لك بمثابة خطوة مهمة تخطوها نحو حياة مليئة بالثراء والروحانية والعواطف في نطاق بيئة تهتم بالأرقام.. بالمال!".

فهل هذا حق؟. هل مع ما لدي من كراهية للمال، أو عدم التهافت على الثروة بدعوى الضمان العائلي كما تريد أمي قد انتقلت إلى بعض العدوى منها.. لا أظن!.. لأنني أذكر كثيرا من القصص أو الفكاهات عن زيجات المال وها هي ذي واحدة منها:

"قدمت "الخاطبة" الشاب الذي ينشد الزواج إلى العروس الثرية.. فما كاد يرى الفتاة حتى اعتورته دهشة، وهمس في أذن الخاطبة قائلا: "لماذا أتيت بي إلى هنا؟.. إنها قبيحة، حولاء وأسنانها سوداء.. وعلى عينيها غشاوة!" فلم تلبث الخاطبة أن قالت: "إني أسمعك بصعوبة.. تستطيع أن ترفع صوتك فإنها صماء!"

فما كاد دكتور مكسويل يسمع هذه الفكاهة حتى قهقه طويلا!..كانت هذه إحدى قصص زواج المصلحة.. ولكني لم أستطع أن أقنع أمي بأنها على خطأ إلا بصعوبة كبيرة، وبعد مناقشات طويلة، وقد اقتنعت وأدركت أنه من الخير لي أن أترك وشأني أرسم طريقي في الحياة الزوجية كما فعلت في عملي. لقد فهمت أمي أن مستقبلي العائلي يجب أن يكون في يدي أنا وأنه من الجور أن تعارض التيار الذي أسير معه في حياتي الشخصية، وكان من شأن موقفها هذا معي أن قرب ما بين نفسينا أكثر وأكثر!.

لقد كانت في طور طفولتي وطور مراهقتي تتحدث إلي وإلى أخواتي وأخي عن حياتها الماضية وهي في أوج شبابها، وعن أهليها القدامى

وأهل أبي، وكانت تشعر بأننا في حاجة إلى معرفة ذلك التاريخ الذي كان السبب المباشر لتمسكها بالقديم إلى حين. ولما فهمت مني أنني في شوق لمعرفة ذلك الماضي، لمعرفة قصة حياتها سارعت متدفقة تسكب سيلا منهمرا من تاريخ أسرتها الكبيرة وأسرة أبي وقد سرها اهتمامي لمعرفة ذلك التاريخ..

وفي الحق قد ساعدني سماع ذلك التاريخ على الحصول على صورة كلية عن أسلافي وثقافتهم، مما أضاف إلى حياتي لونا جديدا وعمقا أكبر.

الفصل الثالث عشر

الجنس في الطفولة والمراهقة

"عمره نصف عمر الزمن"

ون بورجون

لقد تقدمت للعلاج النفسي وأنا مليء بالشكوك، متوجسا ريبة من أسلوب ذلك العلاج وسلامة طريقته، وكان أشد ما أخشاه هو أن تكون نتيجة ذلك العلاج نقصا أو ضعفا في قدرتي الجنسية أو القضاء على رغباتي نهائيا، أو ربما جعلت مني شخصا غير مهتم بغرائزه الجنسية كما هي الحال مع العقل الآلي الذي لا يشعر بأي اهتمام لما يقوم به من حل للمسائل العويصة التي يؤديها بدلا من المخ الطبيعي!.

فلما أفضيت أخيرا بمخاوفي هذه إلى الدكتور مكسويل، برهن على أنه مطمئن وشديد الثقة بأن العلاج النفسي لا صلة له أبدا بما يسبب هذه المخاوف المزعومة. وبعد أن هدأ من روعي وأزال جزعي وخشيتي من ضعف نشاطي الجنسي، ذكرني بأن بعض المرضى يخشون من العكس إذ يظنون أن التحليل النفسي سيزيل ما لديهم من نقص جنسي، ويزيد من ثورة الغريزة الجنسية فيهم.. وقد أكد لي دكتور مكسويل بأنه

مطمئن إلى أن التحليل النفسي لا تنتج عنه مثل هذه الحالة التي أتحدث عنها، ولا يمكن أن تكون هناك نتيجة مثل هذه أبدا..

وكنت كذلك قد توقعت أن أركز على المشاكل الجنسية خلال جلسات تحليلي النفسي، ومما عرفته من نقاش مع بعض هواة التحليل النفسي صرت معتقدا – تحت تأثير نقاشهم المقنع – أن الدكتور مكسويل سوف يبدأ إجراءاته التحليلية باختيار كلمة مناسبة مكونة من أربعة حروف طالبا مني أن أذكر كل الخواطر التي تستدعيها هذه الكلمة في جلاء وصراحة.. وبعد الانتهاء من هذا التسلسل في المستدعيات كنت أتوقع دائما أن يطلب مني دكتور مكسويل أن أروي حلما رأيته، وعلى أساس المعلومات التي استقيتها من الهواة، كنت أتوقع أن يكشف تفسير الرموز الجنسية التي يتضمنها الحلم عن اتجاهاتي الجنسية، والحلم التالي يوضح ذلك:

"أنا في سفح أحد التلال حيث كانت معركة ناشبة وكنت أحمل حربة طويلة، وتلتف حولي جماعة من الجنود، وكان العدو متراص الصفوف فوق التل، وأفراده من الفرسان، وكان يقود هؤلاء الفرسان زعيم معروف من الهنود الحمر... فأطلقت حربتي عليه"..

وكان يخيل إلي أنه بمثل هذا الهجوم ينحسر اللثام عن نزواتي الجنسية فتقطع وتستأصل وتزول كل الممنوعات والمنهيات التي تكتنف ويحل مكانها النقاء والطهر، ولكن أسلوب دكتور مكسويل كان على

النقيض، مخالفا لاعتقادي وتخيلي؛ فهو لم يفرض علي موضوعا جنسيا، ولم يعمد للإشارة إلى كلمات جنسية؛ فإذا كان الموضوع جنسيا بطبيعته، فإننا نناقش مسألة الجنس. ونفس الشيء بالنسبة للأحلام، فإن قادت الخواطر إلى صياغة جنسية، فإن هذه الخواطر تخضع للتحليل، غير أن دكتور مكسويل كان يوضح في جلاء أن العزيزة الجنسية ليست لها شخصية منفردة، ولكنها بالاعتماد على الغير والتعلق به و"الشعور بالعداء" و"كره الأب" وما إلى ذلك من مسائل أخرى تعرفت عليها.

وكنت في أول عهدي مع دكتور مكسويل أفكر خطأ، كان لدي اعتقاد خاطئ عن الطريقة التي تتبع في علاج الجنس نفسيا، ووجدت أن غيري من الأفراد الذين كانوا يعالجون نفسيا هم كذلك فريسة ذلك الاعتقاد الخاطئ، وقد كنت واثقا قبل أن أبدا التحليل النفسي، أن حادثة واحدة من مشاهد حياتي الجنسية هي التي من الممكن رفع الغطاء عنها وكشف مكنونها، وأن هذا الكشف من شأنه أن يزيل على الفور كل عوارض القلق مفسرا تفسيرا شاملا سبب ما يثير أعصابي وتوترها ليحل مكانها في كياني هدوء شامل، واسترخاء عام في مشاعري..

وبرغم اعتقادي أن الحادثة المخبوءة أو مفتاح مشكلتي الغامضة ذو أصل جنسي فإنني لم استطع تحديد طبيعتها بدقة.. كانت لدي فكرة غامضة بأن هذه الحادثة لا بد أن تكون قد نشأت عن ممارسة العملية الجنسية المثلية من "اللواط" أو "السحاق" أو عن انزلاقي إلى العادة

السرية أو اكتشاف أنني كنت أسترق النظر لرؤية عملية جنسية!. ولهذا فإنني كنت أحاول إخفاء هذا الحادث وطمس ذكراه نظرا لأنه شائن مزر.

وقد سألني دكتور مكسويل عندما بدأ يعالجني أن أدفع إليه بعناصر إضافية لتعيينه على تفهم مركزي من الجنس، وتمكنه من رسم صورة لسيرة حياتي بكل نواحيها.. وكنت في الواقع لا أستطيع أن أعطيه معلومات شاملة وفي وصف قصير ضيق الرقعة كالذي يطلبه.. لأن الوصف الذي يجب أن يتسع لسيرة حياتي لا بد أن يكون مترامي الرقعة، جامعا لكل أطراف تاريخ حياتي.. كذلك كانت هناك من الحوادث ما لا يمكن ذكرها دون إزعاج لي، إذ أن وصفها فيه إحراج شديد لي وحيرة فائقة الحد، خصوصا وأنه يريد الجانب المحرج من حياتي الجنسية ومغامراتي في هذه الناحية..

وقد لاحظ دكتور مكسويل موقفي الحرج، فاقترح أن يؤجل هذا إلى ما بعد زوال توتر أعصابي وارتباكي، وفي الواقع لم أكن أعرف عن ثقة تامة متى بدأت مشاعري الجنسية.. هل كان ذلك الشعور – وأنا في الثانية عشرة من عمري – عندما لمست صدر فتاة تكبرني وشعرت عند اللمسة بحرارة تغمر جسمي وهزة تتمشى في كياني تنم عن رغبة جنسية متدفقة؟. أم كان ذلك وأنا في التاسعة عشرة عندما – بعد قضاء ليلة عربيدة من رقص وشراب وموسيقى – ذهبت إلى الفراش مع "تيريزا" وبعد بضع ساعات عدت إلى اليقظة فوجدتني أنا وتريزا في عناق وعراء وقد أدركت أننا قضينا ليلة حمراء مارسنا فيها الاتصال الجنسي؟!. ولكنني

أحسب أنني لم أوفق بعد لمعرفة الوقت بالضبط.. وربما كان أجدى لو رجعت إلى الوراء سنوات كثيرة.. إلى الوقت الذي كان عمري فيه ست سنوات، الوقت الذي كنت أنا ورفاقي الصغار من الجنس الثاني يمس كل منا العضو التناسلي لرفيقه!

وهكذا كنت غير واثق متى بدأت لدي الرغبة الجنسية، ولكني أميل إلى ترجيح أنها نشأت وتدفقت منذ تلك الليلة مع "تيريزا" التي كانت أكبر مني سنا وأكثر تجارب، إذ كانت في الخامسة والعشرين وأنا في الحادية والعشرين

وهناك حالات أخرى منذ سن السادسة ثم في طور المراهقة لا أجد في نفسي القدرة أو الجرأة على ذكرها لأنها متصلة بسيرة فتيات من الجيران والأقارب، وقد كان كل منا يشعر بعد زوال الشعور اللاذ بأنه ارتكب إثما!.

وأذكر أنه بمرور الأعوام وقد كبرنا، كانت إحدى شريكاتي في الإثم وقد بلغت عشرة تبتعد عني ولا تعيرني التفاتا كما لو كان ما تم بيننا من قبل قد حدث وهي في حالة لا شعورية!. وظل السر بيننا غير معروف حتى نزحت إلى بلد بعيد جدا.. والمهم أن الأمر ظل بيننا سرا لم يطلع عليه أحد..

وقد تذكرت أثناء حديثي مع دكتور مكسويل شارحا في إسهاب تاريخ حياتي الجنسية، مغفلا الكثير مما يجب أن تطمس معالمي ولا يطلع عليه الغير.. تذكرت مزحة ذات مغزى بعيد المدى فقلت له:

"دكتور مكسويل.. هل تعرف شيئا عن قصة الغلام الذي لا تزيد سنه عن الثامنة؟. لقد سأل أمه في لهجة جدية: "أماه.. هل تحمل الفتيات الصغيرات وينجبن أطفالا؟".. فردت عليه قائلة: "كلا.. لا يمكن ذلك وهن دون العاشرة".. وعاد يسألها السؤال نفسه مرة ثانية، وتلقى نفس الجواب، وسألها مرة ثالثة فردت عليه مؤكدة وطلبت إليه أن يكف عن مضايقتها بمثل هذا السؤال السخيف!. فركض إلى الخارج ليطل من الشرفة وينادي على فتاة صغيرة ليقول: "اطمئني يا سالي.. لا خوف البتة!"..

وهناك حادثة أخرى تتصل بإحدى قريباتي، من بنات عمومتي، جاءت في زيارة شقيقاتي، وبرغم القرابة فقد كانت هي أول مرة تزورنا فيها، وكنت في سن الثالثة والعشرين وهي أكبر مني بعام أو عامين؛ فطلبت مني شقيقاتي أن أصحبها إلى المرقص فقبلت برغم ما كان يبدو في مظهرها من جمال فاضح، وحرية متطرفة، وسمات صارخة تنم عن شخصية فذة. وبعد أن رقصنا وجرى بيننا حديث طويل شيق أظهرت لي في وضوح وصراحة أنها تواقة إلى خطوة أخرى! وقد نال هذا موافقتي أنا الآخر لولا صلة الدم بيننا، ولو أنها بعيدة، فشعرت بتوتر نفسي وقلق ورغبة في الفرار منها!

هذه الخواطر التي برزت أثناء مناقشة مغامراتي المبكرة في طوري الطفولة والمراهقة قادتني إلى حياتي الجنسية وتعلقي بأمي وأخواتي، وقد قال لي دكتور مكسويل في شرح واف صريح أن أكثر ما لدي من مشاعر جنسية هو ما يقال عنه نفسيا "الشهوة الغيرية" إذ أن الطفل الذكر يحب والديه بالتساوي، ثم بعد مضي وقت يتعلق بأمه ويهمل والده قليلا.. ومتى نضج يكره أن يكون له شريك في حب أمه وتعلقه بها ومن هنا تنشأ غيرته من أبيه ويظن أنه يحقد عليه، ولكنه في الوقت نفسه يخشاه!.. وهذا ما يسمى بالموقف الأوديبي.. ثم تمر بالطفل مرحلة الكمون التي تمتد حتى المراهقة، وهذه المرحلة هي التي تبزغ فيها الميول العقلية والاجتماعية، ويعتورها هدوء الانفعالات التي كانت ثائرة صاخبة في طور الطفولة المبكرة.. ثم تأتي بعد ذلك المراهقة ذات المشاعر الجنسية التي ينبثق منها هدف الغريزة النهائي وهو الرغبة في التناسل، إذن فالمراهقة هي أولى الخطوات التمهيدية إلى حياة جنسية سليمة.

هذا ما قاله دكتور مكسويل. وقد تبين لي أنه صور الحقيقة التي كانت لدي كاملة، لقد كنت أفترض أن رغبتي المكبوتة وأنا بعد في طور الطفولة في أن أمارس حبي الجنسي لأمي يمكن قياسها وتقدير درجاتها بما أشعر به من جاذبية نحو النساء الأكبر مني سنا، وقد خيل إلى أن حادث علاقتي الجنسية مع مدرستي "مرجريت" فيه المفتاح المهم لما ظهر من رغبات جنسية لدي أثناء التحليل النفسي، والواقع أن الجاذبية

وعقدة الذنب نحو النساء اللاتي يذكرنني بأمي وأخواتي كان لهما تأثير شديد علي.

وقد فسر لي دكتور مكسويل "أن حب الطفل أو المراهق أو الشاب لأمه وأخواته وتعلقه بهن ليس فيه اشتهاء محرم أو رغبة فاسقة، وإنما هو غريزة جنسية خالية من الوظيفة التناسلية أو الاشتهاء المحرم.. ومن مظاهر الغريزة الجنسية أيضا، اللذة التي يجنيها الطفل الرضيع من مص أصابعه، أو من الدفء والراحة بين أحضان أمه.. ومن مظاهر هذه الغريزة في المراهقة أن يمد المراهق بصره ليتجسس على فتاة عارية أو عملية جنسية!. وبعبارة أعم أن كل لذة ولو كانت بعيدة عن فكرة التناسل هي من مظاهر الغريزة الجنسية"!.

وبهذا اطمأن قلبي، إذ كنت أشعر أن تعلقي بأمي أو المحرمات من أهلي فيه جرم خلقي شنيع لا أغتفره لنفسي، وما هي إلا لذة جنسية بريئة كمص الطفل لأصابعه

ذكرت لدكتور مكسويل قصة مغامرة لم تتم استرجعت حوادثها رغم مضي وقت طويل، وتتلخص فيما يلي: انضم إلى موظفي المعمل الفنيين فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ذات جمال يلفت الأنظار، وشعر نحاسي، ووجه مستطيل، وقامة فارعة تجعلها شبيهة بوالدتي إلى حد بعيد وهي في أوج شبابها.. وكانت "جويس" – وهذا هو اسمها – محبة للغزل، ذات أنوثة صارخة مثيرة للحب.. ومع هذه الصفات لم تكن ذات

دراية تامة بعملها. أو بعبارة أوضح لم تكن تهتم كثيرا بعملها الفني، ولا تجد في الكيمياء لذة أو رغبة مشبعة.. كانت أنثى من الطراز الذي يدفع بي إلى الخروج عن محيط نشاطي الفني، ويناوئ أسلوبي الجدي وأنا أمارس أبحاثي العلمية، ولكن رغم هذا فقد ألفيت نفسي أسعى إلى التقرب منها واستمرار بقائها بجواري دائما في العمل أراقبها وهي تعمل، وأصغي إلى صوتها، فأجد متعة ولذة تطغى على كياني وتهيمن على مشاعري. وكان أن أصبح كل يوم يمر بنا يزيد من عرى الألفة بيننا وينمي رغبتي فيها!. وما لبث الحال أن تطورت سريعا، فكنت إذا ما خلوت بها أتناول كلتا يديها وأغمرها قبلات حارة فأشعر أنها تهتز بين يدي وتختلج وتكاد أن تخور قواها، ولكن كان التماسك من جانبي يضفي بعض الحرص والحذر على الموقف!..

وأخذت تتعمد التأخير بعد انصراف مساعدي في المعمل وهي شاعرة بأن هذا العمل من إيحائي، وما أكاد أختلي بها حتى أظفر بعناق حار يجد فيه كلانا متعة لا تقدر، ومن ثم تنصرف وهي تكاد تتهاوى من نار الكبت التي تعتمل في بدنها ومشاعرها.. وكاد الأمر ينتهي بنا إلى الخضوع لجبروت الرغبة التي لم يعد في الاستطاعة مقاومتها، وينتقل بنا إلى علاقة أعمق.. ولكني ثبت في موقف المناضل، فلم نكن نجتمع إلا في المعمل بعد انصراف المساعدين، ويسود الجو نوع من المتعة الحارة المحدودة، ولكن فيها إرضاء وإشباع لحد ما..

لقد كنت طيلة سنين عديدة متمسكا بمبدأ عدم إنماء أية علاقة جنسية بيني وبين أية امرأة تعمل معي، إذ كنت أقدر نتيجة ما ينشأ عن ذلك من تورط أو إحراج، ولكن عندما زاد اشتهائي ورغبتي في "جويس" ووصل إلى الذروة تلاشى ذلك المبدأ وأصبح لا معنى له، وقد ساعد على تعجيل تلاشيه ما كان لديها من عدم خبرة بالعمل، ومحاولتها تغطية ذلك بإظهار خضوعها واستسلامها لي، وكدت أهم بها مجازفا بعد أن فاض إناء كبتي وصبري، ولكني لم أفلت زمام السيطرة. حتى إذا ما أزفت الآزفة رتبت لقاء ليليا أنالها فيه وهي راغبة، ولكن حدث في نفس اليوم الذي كان سيتم فيه اللقاء أن فنيت تلك الرغبة الثائرة وزالت بغتة!

كنت في ذلك اليوم أقوم بتجارب في ناحية من المعمل لا يراني فيها الذين يعملون في إجراء المعمل الأخرى ولكني أراهم، وكانت "جويس" في القاعة الرئيسية تتحادث مع زميله أخرى.. وكان كلاهما يتجادلان في غضب وحنق في شأن من شئون العمل، وكل منهما تدعي أنها المختصة، وإذا بها تثور عارمة وتنقلب سحنتها إلى شكل كله قبح، وتنطلق من فمها الألفاظ النابية الشائنة كأنها طلقات مدفع رشاش!. رأيتها وقد انقلبت إلى تمثال من القمح وسمعت سبابها كأنها رجل من حثالة المجتمع!. فإذا بي أشعر كأن إمعاني بردت كما لو كان أصابها جليد ولم أعد أحس بها، وفنيت تماما رغبتي فيها واشتهائي لها!. ووجدت أن من المؤلم أن أقترب منها.. لقد زال كل ما كنت أشعر به نحوها من رغبة جنسية صارخة، واشتهاء لا حد له!. ومن حسن الحظ لكلينا أن نقلت "جويس" إلى إدارة أخرى في الشركة بعد الحادث

مباشرة، ولكنها بعد ذلك عملت في شركة أخرى ولم أرها بعد ذلك أبدا...

وفي الوقت نفسه ولمدة أعوام عديدة ظللت فريسة الحيرة الشديدة تجاه هذه التجربة القاسية.. ظللت أتساءل: "كيف أن رغبتي الملتهبة واشتهائي الصارخ لهذه الفتاة قد أصبحت جذوته رمادا بمثل هذه الحادثة التافهة؟.. لم تكن مثل ما حدث من تأثير بالغ بعد أن رأيت "جويس" على حقيقتها في هذا الحادث التعس!.."

وقال لي دكتور مكسويل معقبا أن شخصية طفولتي لم تتغير أبدا وبين لي مثلا أن اشتهائي العلاقة الجنسية مع المدرسات خصوصا "مرجريت" دلت على أنني لم أنضج بدرجة كافية وأنني لا أفرق بين الفتيات العاديات وبين من يقاربن أمي سنا.. وهذا الصراع جعلني دائم التنقل من فتاة إلى أخرى باحثا عن مغامرة جنسية جديدة أبعد مدى من المغامرات العادية! إنه ما زالت أمامي رحلة طويلة شاقة قبل أن أستطيع الوصول إلى تلك المكانة العالية من الحياة حيث يعيش الإنسان في كنف الحب، والزمالة والجنس متمثلة في علاقة ناضجة تماما.

الفصل الرابع عشر

الجنس في الحياة الجامعية

"في ذلك المحبس، حيث الحياة الجنسي تبدو غامضة مبهمة محيرة ميئوسا منها"

لويس آنترميير

وقد قضيت مرحلة الأعوام الأربعة وقلبي مفعم بالسرور لتفوقي جنسيا خلال سني الدراسة الجامعية عندما كانت توترات نفسي الانفعالية العامة مقبولة ومحتملة كل الوقت أو أغلبه.. وقد قضيت مرحلة الأعوام الأربعة وقلبي مفعم بالسرور لتفوقي في الدراسة.. أو بالأصح لشعوري بسعادة غامرة وأنا أمارس دراساتي التي كنت فيها متفوقا عالي المستوى.. وكان نجاحي في الانتخابات لتمثيل زملائي في سني الدراسة من شأنه أن يضعني في موضع الزعامة على الطلاب. وفوق ذلك فقد كانت لي صداقة وطيدة الأركان مع زملائي الطلاب، كما كانت لي غراميات كثيرة قصيرة المدى مع الفتيات، ولحظات خاطفة من المتعة، ولكن من المؤكد أن بعض التوترات والهواجس المزعجة كانت لا تزال مصرة على مصاحبتي.

إن المناهج الدراسية في المدارس الثانوية كانت سهلة يمكن قطعها في غير مشقة لأن غالبية المواد الدراسية كانت تدرس بطريقة "التغذية بالملعقة".. فلما التحقت بالجامعة أصابتني الحيرة والدهشة من "مقاييس" الدراسة في الجامعة وعلو مستواها العلمي، وما تتطلبه من جهد بالغ وعمل متواصل، خصوصا متى كان الإنجاز يتطلب مجهودا فرديا دون عون.. وقد استطعت بعد قضاء العديد من الليالي في العمل المضني أن أتبين أنني متمكن من مواد الدراسة، ومع ذلك فقد كنت طيلة أربعة أعوام الدارسة أشعر بتوتر، وعدم اطمئنان أثناء فترات الاختبارات!.

وكان رفاقي في القسم الداخلي، قد أتوا غالبا من بلاد صغيرة، وقد أحدقت بهم الحيرة لموقفهم الجديد الذي لم يعتادوا عليه مثلي، ولذا لم يكن هناك ما يشجع على أن يكون تبادل المرح أو الاطمئنان متوفرا بيننا، كما لم تنشأ بيننا ألفة أو صداقة سريعة، وكانت الجامعة واقعة في مدينة كبيرة لا أجد فيها أصدقاء ولا أقارب، وكانت عنابر النوم متسعة كما كانت قاعات المحاضرات، والمعامل، وقاعات المطالعة مزدحمة بالعديد من الطلاب المتوتري الأعصاب مما لا يستطيع المرء معه أن يكون أصدقاء، ولذا فقد كنت أشعر بوحدة يائسة بعيدا عن بلدي وأهلي.. ولم يكن العثور على الأصدقاء أو خلقهم سهلا ميسورا، إذ يحتاج الأمر إلى وقت لتكوين الصداقة وكانت توترات نفسي التي نشأت لدي في أول عهدي بالتعليم الجامعي قد جعلت من الصعب علي أن أتنفس الصعداء ولو ساعة واحدة في اليوم. وكانت وحدتي قد تحولت

إلى قلق تصاحبه مشاعر قذرة دنيئة أشعر معها أحيانا بحالة من التقزز والغثيان تصيبني لمدة بضع ساعات، والأغلب أن هذه كانت أولى علامات إصابتي بقرحة المعدة التي أصبحت حقيقة واقعة لمدة سبع سنوات كاملة..

هذه الأشكال والأنماط من الوحدة، وتوتر الأعصاب، والمشاعر القذرة، وانقباض النفس، ظلت ملازمة لي خلال السنوات التي قضيتها في جامعة "ميدل وسترن"، وفي بعض الأوقات كانت المشاق التي تعترضني تخف نوعا ما أو تزول مؤقتا بما أصيبه من نجاح في دراساتي وباطراد معرفتي بالحالة الاجتماعية والثقافية داخل الجامعة. وقد تبين لي أن حياتي في الجامعة بعيدا عن موطني، فيها تحرر من قيودي، وزوال السيطرة التي كان أبي يفرضها علي.. زالت تلك القسوة التي كانت تصغر من شأني، وتطمس شخصيتي فأصبحت حرا وقد تحطمت أصفادي، منطلقا كماء النهر، متدفقا إلى مصيري المحتوم الذي بين يدي – وحدي – أن أرسمه بنفسي.. وكنت أود أيضا أن أستقل استقلالا تاما شاملا، ومعنى هذا أن أرسم طريقي المادي أيضا كما أرسم طريق تحرري النفسي، وهذا يتطلب مني جهودا جبارة لا يذللها إلا قيامي بعمل ما وأنا في عطلة الدراسة أربح منه ما لا يعينني على مطالب الجامعة، ولكنني أخيرا طلقت هذه الفكرة، لأن هذا العمل خليق بأن يوسع شقة الخلاف بيني وبين والدي، ويزيد من الجفوة بيننا..

وقد كان في الوضع الحالي – وهو الذي نشأت عنه مسئوليات جديدة وانفعالات نفسية نتيجة التحول من حياة بلدنا "ميدل تاون" إلى الحياة الجامعية – كان في طبقات مكدسة من الصراعات الجنسية المتضاربة.. كانت تجاربي في المدرسة الثانوية – إلى حد بعيد – مرضية لي اجتماعيا، فيها اكتفاء وقناعة..

لم تكن هناك مسئوليات أو أخطار جدية من العناق أو المغازلة بين الشبان المراهقين والفتيات الصغيرات.. وكان في هذا الكفاية لي ولرفاقي في الدراسة – إلا في النادر القليل – وقد قبلوها عن طيب خاطر قانعين، أما أولئك الفتيان الذين كانوا "ينغمسون" في مغامرات جنسية فعلية كاملة، بالإضافة إلى بضع فتيات دار الحديث عنهم بأنهن يقبلن الوصول إلى نهاية المطاف جنسيا.. هؤلاء وأولئك كانوا في اعتقادي واعتقاد المعتدلين من الرفاق أقلية من الشباب الجرئ الطائش.. ولم يكن الضغط الاجتماعي الموجه إلى طلبة وطلبات التعليم الثانوي منتشرا كثيرا في الجامعة بل يمكن القول بأنه لم يكن له وجود.. وكان رفاقي في "عنبر النوم" بالقسم الداخلي يفخرون بأنهم نالوا متعة جنسية تامة، ويظهرون ازدراءهم من الذين يقنعون بأقل من ذلك، وكانت هذه الحالة مما يصعب علي أن أقرر فيها اختياري.. كان اختيارا شاقا ليس من السهل علي أن أحدده وأنفذه، وكانت توترات نفسي تلح علي وتدفعني ولم يكن في مقدوري أن أبقيها في مدارها الذي كانت تسير فيه خلال طور الدراسة الثانوية..

لم تكن لدي خطة محددة للعمل، كما لم تكن لدي خبرة سابقة ولا حتى رأى، أو نظرية، أو فلسفة لترشدني إلى الطريق.. كان والداي يتجنبان الخوض معي في موضوع الجنس، ويكرهان النقاش فيه!. وكانت الحيرة التي تبدو في حركاتهما ونظراتهما وهما يهمسان عن فضائح العلاقات الجنسية التي تحدث بين الجامعات توتر مشاعري، وأدري أنه ليس من الصواب أن أفضي بمشاكلي إليهما.. وكان أخي الأكبر يلقى منهما نفس المعاملة، ولهذا السبب كان الخجل يسيطر علينا كلينا بحيث لا نملك القدرة على التحدث أو النقاش في مسائل الجنس ولم نستطع هذا إلا بعد مرور بضع سنوات. وخلال الدراسة الثانوية لم تتح لي الفرصة لمناقشة الموضوع مع أي رجل له دراية، كعالم نفسي أو طبيب، وكانت المواد التي تدرس لنا عن الثقافة الصحية مرسومة بحيث تتجنب الخوض في المسائل الجوهرية بصفة عامة!. ولكن الآن.. في الجامعة.. أخذت أبذل جهودا كبيرة ومحاولات تهدف للدخول في نقاش في هذه المسائل المزعجة مع مستشاري أو ناصحي المسئول، وفي أيام العطلات مع طبيب العائلة.. ولم يكن أحدهما متجاوبا معي تماما لأنني لم أكشف نفسي لهما تماما ولم أفض لهما بمشاكلي في صراحة ووضوح، ولم أمكنهما من الإلمام بالمسائل على وجه واف..

وصارحت دكتور مكسويل بأنني لو أسعدني الحظ بلقائه في ذلك الوقت الذي مضت عليه بضع سنوات لوفرت على نفسي تعاسة وشقاء تلك السنين.. وهكذا.. وأنا خالي اليدين من أية مساعدة من ذوي أو المحيطين بي تعطيني فكرة مقنعة عن الاتصال الجنسي وتشبع رغبتي في

التعرف على كهنه، ألقي بي في مضمار النقاش المجهز بوسائل الجامعة ذات القيود الجامدة الصارمة.. وهذه الجلسات الجامعية كان من النادر أن تبدأ بنقاش مباشر عن الجنس والمخالطة الجنسية، ونادرا أيضا ما تنتهي بنتيجة مجدية لأن مصيرها في النهاية الفشل التام..

كان الموضوع يعرض للنقاش على أساس من الأمثلة المضروبة أو المكتوبة كأسانيد أو توصيات عن "طريقة الاتصال الجنسي في الحياة"، ثم ذكر ما يتعارض معها، وهذا هو كل ما كانوا يفخرون بأنه أحدث ما لديهم من تجارب!. وبعد أن تنهك هذه المجموعة من الطلاب نفسها بذكر ما مر بها من حوادث وتستنفد ما في جعبتها من مزحات ونكات تتعلق بالجنس نخرج من هذا المضمار لا تملأ رؤوسنا إلا سخافات، وفضائح، ونكات ثقيلة كلها قذارات بعيدة عن الذوق والاجتماعيات والعرف المحترم!

وكان بين الذين يتولون النقاش شاب أثر علي تأثيرا كبيرا اسمه "جورج".. كان أحد المعارضين له من جماعة الشبان المسيحيين ويدعي "فريد" يصفه أثناء النقاش بأنه "شهواني" لا شيء في رأسه إلا الاتصال الجنسي!.. فلما نهض "جورج" للتعقيب عليه كانت لهجته في الكلام متراخية هادئة.. كان أسلوبا من أهدأ الأساليب التي سمعتها من قبل.. قال: "لقد غاب عن بال "فريد" أنني وهو شخصان مختلفان".. ثم أخذ يدلي بفلسفته بطريقة محكمة، فقال مما قال: "أنا راغب أبدا في النساء.. وهن يبادلنني هذه الرغبة.. أحترمهن ولا أضعهن موضع التسفيه

كما يفعل الأفاقون لأن لهن كرامة عندي.. إن بعض الشبان يقولون أنهم ينالون قسطا أكبر من المتعة وبأقل نفقة في بيوت الدعارة.. ولكنني لا أوافق على هذا القول.. إن "الاتصال الجنسي" إما أن يكون لهوا أو صداعا، وأنا أريد به المتعة لا الصداع!"

كانت كلمة "جورج" خطبة طويلة، فلما أخذت أفكر فيها وأسترجع كلماتها قررت أن أسير في الدرب الذي يسير فيه!.. وهكذا بدأ اتجاه آخر في حياتي، وكان أكثر مراحل حياتي امتلاء بالمغامرات الجنسية التي فيها متعة تكتنفها الأخطار وليست كما كانت سهلة في مرحلة المراهقة في الدراسة الثانوية.. الآن أصبحت هناك أخطار حقيقية ومخاوف من الأمراض السرية والحمل، وما إلى ذلك، وأصبح واضحا أيضا أن الاتصال الجنسي داخل الفنادق محفوف بالأخطار كذلك لأنه عمل يمنعه القانون.. ولذا كانت الفتاة أو المرأة المرغوب فيها ليست هي التي يكفي أن تكون ذات وجه جميل، وجسم فيه أنوثة وإغراء، بل التي يكون لها مسكن خاص!.. ولذا فقد كان الكثير من الفتيات على إدراك تام بأن الرغبة في الاتصال بهن تكون أكثر وأوسع لو كانت لهن مساكن خاصة أو مشتركة مع فتيات أخريات، ولكي يكون هناك توفير في النفقات، كانت طريقة اشتراك اثنتين أو ثلاث هي السائدة!.

وقد عرفت حقيقة ذلك الاتصال الجنسي بين جدران المساكن الخاصة، وغرف الفنادق، والسيارات، والحانات التي تقام على جوانب الطرق النائية وحتى في العراء تحت قبة السماء!!.. فلما زالت مظاهر

الجمود الذي كان مخيما علي، وشعرت فعلا أنني قد اقتربت من ممارسة الاتصال الجنسي على حقيقته، وهي العملية التي كنت أترقبها وأنتظرها في لهفة، ووصفتها في دفتر مذكراتي في ذلك العام حيث قلت: "الاتصال الجنسي هو "سعادة غامرة"، شعور عاطفي طاغ، ذوب جار من المشاعر التي تتمشى في كياني مع ضحكة سعيدة صادرة من صدر ناهد ممتلئ.. يتردد صداها في أرجاء العالم ليتصل بعشاق الماضي الخالدين!" هذه كلمات تدل على نفسية متلهفة عطشى إلى إشباع نهمها الجنسي وعواطفها الفائرة!. إلا أنني لم أتمتع أبدا بذلك الشعور اللذيذ الذي كنت أنشده، ولكني كنت "أخرج" من كل مغامرة جنسية مثقل الفؤاد بالشعور بالخطيئة.. يحطمني الشك، ويلفني الخوف من عدوى المرض الخبيث!. ومنذ اللحظة التي تعقب الفعل الجنسي أظل أعمل، وحمى الذنب الشديدة الوطأة تنهش قلبي، حتى أستطيع التغلب عليها وإذا بي بعد هذا الذي أزنه تكفيرا عن الخطيئة، على استعداد لخوض المعركة التالية دون تردد!..

كانت النساء اللاتي يمثلن الطرف الثاني في هذه العمليات الجنسية، وهن من ذوات الطابع الفاجر، يبدين لي غريبات عني كآدميات من بني البشر.. كنا نشترك في مأساة "التملك" التي كانت كثيرة التنوع، متعددة الطرق حسب رغبة المرأة نفسها، والقانون الذي يحلو لها أن تطبقه لإشباع الغريزة.. وهي وسائل كلها فجور نسائي مثير كالتمنع للإثارة، أو التظاهر بالرغبة التي لا تشبع، أو اتخاذ خطة تجاهل الرجل والعمل على إثارته وهي طريقة تجد المرأة فيها لذة عظمى.. وكان كل

لقاء بيني وبين أية فتاة أو امرأة للغرض الجنسي صراعا عاطفيا جنسيا ينقصه النضج، إذ لم يكن في الحق سوى علاقة جنسية نشأت عن الرغبة في الانتصار أو التملك دون نظر إلى الرغبة أو الحاجة التي ينشدها أي من الطرفين!. ولم تكن كافية قط، لأن إيانا لم يظهر أنه ينوي أن يشيد عليها علاقة حب أو صداقة!.

وقلت لدكتور مكسويل: "حضرت مرة حفلة موسيقية في إحدى قاعات الموسيقى، ولما غادرت القاعة وجدت نفسي واقفا بجوار "إميلي" وهي فتاة في الحلقة الثالثة، وكنا قد تحادثنا دون أن يعرف أحدنا الآخر، ونشأت بيننا علاقة سريعة امتدت طوال العام الدراسي.. كانت علاقة طيبة تمتعت فيها بها إلى حد الاكتفاء!.. ومر بنا أستاذ كبير من أساتذة الجامعة فتقدمت إليه بالتحية، وأردت أن أقدم له صديقتي فلم يحضرني اسمها بالكامل لأنني لم أكن أعرفه ولا أعرف عملها رغم علاقة بيننا دامت نحو تسعة شهور!.. وقد قالت لي في صراحة أنها متزوجة وأنه لا يمكن إطلاقا أن تشاهد معي في أماكن عامة، فلم أقاوم هذا الموقف الذي كنت أعتقد مع ذلك أنه خدعة، مقصود بها إحاطة نفسها بالخيال والغموض، ودبرت مكانا للقائنا في مسكن لأحد أصدقائي أعارني إياه عن طيب خاطر كلما اتفقنا على لقاء.. وكانت "إميلي" امرأة ناضجة في الثلاثين بديعة الحسن لا يهمها إلا أن تكون عملية وسريعة في إرضاء رغباتها الجنسية التي تستسلم لها استسلاما تاما، ثم تنصرف في سيارة أجرة وترفض أن أوصلها إلى مسكنها!.. ولم تذكر لي أبدا اسمها الحقيقي أو أي شيء عن حياتها الزوجية، وقد كان ظاهرا من تصرفاتها

ومن مظهرها وزيها أنها مثقفة وثرية.. وكان واضحا جليا من ولائها لمواعيدها الأسبوعية معي أنها كانت في حياتها الزوجية بعيدة البعد كله عن إشباع رغباتها الجنسية..

وقد استمرت الحال بيننا على هذه الطريقة بضعة شهور بلغنا فيها ذروة المتعة، ولما انتهى العام الدراسي رحلت إلى بلدي لقضاء عطلة الصيف بعد أن وعدتني بالكتابة إلي في الخريف، ولكن قبل أن تتصل بي كتابة التقيت بها أثناء خروجي من الحفلة الموسيقية كما ذكرت، ودون توقع، وقد أدركنا كلانا أن العلاقة الجسدية المتينة التي دامت بيننا شهورا طويلة قد زالت واختفت من حياتنا، وحل مكانها عدم الرغبة في تجديدها...

وقد سرني أنني لم أسمع عنها أبدا بعد هذا اللقاء الأخير، وحلت "هيلين" وهي فتاة في الثانية أو الثالثة والعشرين من عمرها مكان "إميلي" وكانت تعمل في شركة زراعية منعزلة على مقربة من "ميدل تاون".. تم لقاؤنا عند زيارتها أقرباء لها في نفس المدينة، وتم تعارفنا، واستمرت صداقتنا عدة أعوام، فلما انتقلت إلى مدينة الجامعة لتعمل هناك تحولت صداقتنا العادية إلى علاقة متينة من المودة.. وقد ظهر في أول عهدنا أنها لا تختلف عن بقية الفتيات اختلافا خاصا، ولكن بمضي الوقت وبعد أن توطدت العلاقة كانت تبدي سرورها وتلهفها، وظهر أنها ترحب بالوصول إلى نهاية العملية الجنسية عن طيب خاطر، ولكنها بعد أن قضينا ليلة ممتعة، أخذت تبكي بحرقة وهي تردد في لوعة وعصبية "إنها

لم تكن في وعيها وأن الشهوة الجنسية الملعونة أفقدتها زمام السيطرة على أعصابها"، وقد أدهشني ما بدا عليها من شعور فائض بجريمتها، فإن هذا الحزن وهذا الشعور بالجرم لم يكونا مستقيمين مع ما اعترفت هي به من أن العملية الجنسية غير جديدة عليها!...

وبعد عدة أيام اتصلت بي تليفونيا وطلبت مقابلتي، ولما اجتمعنا كانت في حيوية فياضة واشتهاء للعملية الجنسية، ولكن مرة أخرى بعد الانتهاء من إشباع رغبتها عادت إلى البكاء والندم، وصرحت لي بأنها ترسم خطة للانتحار!.. ولم يكن هناك أدنى شك في أنها جادة، فأصابني انزعاج عميق وارتبكت لموقفها هذا، ولم أفكر إلا في سلامتي بعيدا عن هذه الفتاة الشاذة المجنونة.. وبعد شهور طويلة اتصلت بي تليفونيا مرة أخرى عند منتصف الليل وقالت لي أنها يجب أن تتكلم معي.. فشعرت عندما سمعت لهجة الأهمية في صوتها أنه لا بد من هذا اللقاء، فتركت ما كنت أعده للامتحان في الصباح التالي، وذهبت إليها، ولما التقينا وجدتها في هياج مروع، مقسمة المشاعر نحو الاتصال الجنسي أو العدول عنه خوفا من رد الفعل، وعادت تردد عزمها على الانتحار، وقد هدأت من روعها ونصحتها بعدم التفكير في الانتحار مرة أخرى، وعلى ترك ذلك الشعور المزعج الذي يعقب كل عملية جنسية يمر في سلام من أفق خواطرها...

وبرغم جهلي وقتئذ بهذا النوع من العلاج النفسي "التحليل النفسي" فقد لاحظت أنها في حاجة إلى مثل هذا العلاج لخطورة

حالتها.. كنت أريد أن أساعدها جهد استطاعتي، فسألت زميلا لي في القسم النهائي من كلية الطب أن يشير علي بما يراه فأشار بعلاج نفسي ثم أعطاني كتابا عن هذا العلاج واسم طبيب أخصائي في التحليل النفسي، فأرسلت الكتاب الاسم إلى "هيلين" وحاولت أن أنساها، ومر عام قبل أن أسمع عنها مرة أخرى، ولكن هذه المرة كانت فصل الخطاب!.. إذ وجدت اسمها في رأس عامود كامل من إحدى الصحف يصف حادث انتحارها.. لقد وجدت في الصباح منتحرة في فراشها نتيجة تعاطي عدة أقراص منومة، ولم تترك مذكرة بسبب ذلك.. كما وجدت مذكراتها وأوراقها الخاصة محترقة وكذلك عناوين أصدقائها ومعارفها!.

وقلت لدكتور مكسويل أخيرا: "لقد كنت محظوظا لأني أصبت بقرحة المعدة التي أتت بي إلى هنا للتحليل النفسي، وإلا لتعذر علي أن أمارس حياة جنسية فيها اكتفاء وإشباع ناضج!.."

الفصل الخامس عشر

معان جديدة للعلاقة الجنسية

"إنهم سعداء.. فهم على الأقل رأوا في الحلم أن قلبين اندمجا في قلب واحد"

ماثيو أرنولد

كانت كل تجاربي الجنسية في السنوات السابقة لتحليلي النفسي – فيما عدا علاقتي بمرجريت مدرستي – عدائية مليئة بوسائل الإخضاع والقهر، والمبالغة، ولم ينجم عنها أية متعة أو اكتفاء!. وكانت المخالطة الجنسية قد جعلت مني إنسانا متوتر الأعصاب مذنبا، وفي الغالب نهبا للخوف من أنني قد أصبت بمرض تناسلي أو قد تسببت في أن تحمل شريكتي في العملية!.. كنت مقيدا ليست لي سوى حرية قليلة في الاختيار، وكنت مدفوعا إلى هذه الاتجاهات والنوازع بقوة غير محكومة ولا مقيدة، وغالبا ما كانت كل مغامرة جنسية مشفوعة بشعور بالجرم، وانقباض نفسي يلازمني أسبوعا أو أكثر!.. وكنت أكفر عن الخطيئة بشغل نفسي بالعمل، وممارسة الرياضة، وآخذ حماما باردا، والسير الطويل.. وكان يعقب مثل هذه "الدورات" هبوط وانخفاض في مطالب الغريزة الجنسية فتهدأ ثورتها.

وكاد هناك شيء من الاختلاف في علاقتي مع "مرجريت" مدرستي السابقة، ومع ذلك، وبرغم علاقتنا المتينة فقد كنت أشعر بخجل مبهم، لأنني كنت على يقين من أن هناك دافعا قويا يكمن وراء حاجتي القصوى لمثل هذه المرأة التي في مثل سن أمي! فلما كنت أقضى العطلة الأسبوعية معها كنت أحس أنني أكثر ضيقا واضطرابا وشعورا بالاكتئاب برغم ما كانت "مرجريت" تبثه في نفسي من أمل.. أمل عثوري على فتاة من سني تفي بحاجتي إلى الحب العميق الذي لم أجده ولم أعرف مثله إلا معها هي!.

وقد كانت مخاوفي المزعجة من الأمراض التناسلية كثيرة لا تحتمل، وكانت تسبب توتر أعصابي وتؤثر تأثيرا بالغا على توازني النفسي، وقد حدث قبل أن أقدم على التحليل النفسي.. في نفس العام – وكانت مخاوفي من عدوى الأمراض التناسلية كما قلت شديدة التأثير على أعصابي – حدث أن كنت مع صحاب لي من الجنسين نقضي ليلة حمراء عربيدة، ودفعني تأثير الخمر إلى أن أرغم شريكة لي – كانت هي الأخرى ثملة – على أن ترضخ لرغبتي الجنسية بعد ممانعة ومقاومة عنيفة!. وقد قالت في صراحة أنها لا تبدي هذه المقاومة لأنها فتاة محتشمة أو عذراء طاهرة، ولكن لأنها في الحقيقة تفضل أن تبقى مخلصة جسديا لرجل واحد تحبه!.. ولكنها في النهاية رضخت تحت تأثير الجو الذي كان يسود الموقف، والخمر المثير!.. وفي الصباح التالي أخذت تبكي في حرقة وتلقي علي اللوم لأنني أرغمتها على نكث

العهد الذي أخذته على نفسها وسبب لي هذا اللوم قلقا مثيرا وحزنا شديدا.

ومؤخرا في ذلك اليوم، كان انقباض نفسي وجزعي قد تحولا إلى ألم شديد لأنني اكتشفت بقعا حمراء فوق عضوي التناسلي!. فأسرعت إلى طبيب الأسرة ظنا مني بأن هذه البقع هي عوارض مرض الزهري المروع، وكان الطبيب هو طبيب أسرتنا الذي طالما رعاني خلال طور طفولتي، فلما رأى البقع انفجر ضاحكا كعادته وقال مطمئنا: "هذا نوع من طفح جلدي ينشأ عن أكلة "جمبري" أو أي طعام آخر مثله وليس مصدره العملية الجنسية"

وهنا قال دكتور مكسويل: "إن خوفك الشاذ من إصابتك بمرض الزهري كان شديدا صارما، وخطره الفعلي – كما أعرف – لا يكون إلا تافها بسيطا إذا اتخذ المرء منه حيطة كافية واحتراسا عاديا"..

وقد لفت نظري إلى مخاوفي غير العادية وقلقي وجزعي بشأن العملية الجنسية، ثم عمد إلى إثارة خواطري الخاصة بمرجريت وهي التي – كما قال – لا يمكن أن تكون مصدر خوف من مرض تناسلي. قلت وأنا مستلق فوق المضجع: "إن الذكرى تعود بي إلى أسبوع قضيته مع "مرجريت" يا دكتور مكسويل.. وظللت بعد قضائه لبضعة أيام نهبا لمختلف مشاعر الانزعاج والجزع، خاصة بما يمكن أن يكون قد أصابني من عدوى خبيثة، وكنت مرتبكا وفي حيرة من خوفي هذا... كنت أعرف

أن خشيتي هذه سخافة تامة ومع ذلك فقد ظل هذا الخوف يلح علي ولا يفارقني!.."

وقد كان دكتور مكسويل في شوق شديد ليفهمني أن هذا المثال جزء من نماذج يعرضها علي، وبين لي في وضوح كيف أن عقدة الذنب عن الجنس تمتد إلى الماضي... وذكر دكتور مكسويل أن عقدة الذنب تنشأ مع الإنسان وهو طفل فتضخم كل هناته مهما تكن تافهة إلى ذنوب وجرائم، وتجعله يحس بشعور غامض بأنه آثم مذنب يستحق العقاب!. ثم ذكر لي أن مخاوفي التي كونت عقدة الذنب هذه نشأت عن عبثي في طور الطفولة مع رفيقاتي الصغار من سن السادسة، ثم بعد أربع سنوات وأنا في طور المراهقة مع بنات الأسرة والمعارف سواء كان بالفنادق أو الاستمناء وهذه الحالات كانت تترك تيارا خفيا من الخوف في كياني!.. وأضاف إلى ذلك أن الذنب والشعور بالجزع أصبحا في حالة توتر زائد عندما بدأت العلاقة الجنسية الحقيقية في أيام الدراسة الجامعية لأن هذه "التجارب الجنسية" ترتكز أساسا على الاغتصاب والتغرير أكثر مما ترتكز على علاقة الحب أو الصداقة؛ ولذا فالخوف الشاذ (الفوبيا) من عدوى الزهري أو الأمراض الخبيثة يبرز من بطن هذه التربة غير الصحية!.."

ثم قال: "ومثال ذلك أن الألم الشديد والخوف البالغ اللذين كنت فريسة لهما عندما رأيت البقع الحمراء فوق عضو التناسل عندك بعد ليلتك مع رفيقة حفلة الرقص، لم يكونا سوى نتيجة للقسوة التي لازمت

تصرفك مع الفتاة وإخضاعها لرغبتك وهي تحت تأثير السكر والهياج الجنسي بعد أن قاومت طويلا ولكن ليس إلى النهاية، لأنه من غير المعقول لو كانت قد نشأت من العدوى أن تظهر إشارات هذه العدوى في الصباح التالي للعملية، وهذا طبعا معروف لك كرجل يدرس الكيمياء وما يتصل بها من علوم طبية"

حقا كان يجب أن أتذكر الحقائق الأولية المعروفة والتي مرت بي أثناء دراستي الطبية عن الأمراض التناسلية والتي منها أتبين في الحال أن علامات العدوى الزهرية لا يمكن أن تظهر في اليوم التالي للعملية الجنسية!.. فلما زالت شكوكي وتكشفت لي انفعالاتي، كنت شديد الرغبة في أن أغير اتجاهاتها وأعمل على رسم الطريق السوي لها بهجوم سريع مضاد لاستعادة الوقت الضائع.. ولكن دكتور مكسويل مع هذا ظل متمسكا بخطة الترتيب والأناة؛ فقد أدرك أن تلبية الرغبة الجنسية عندي كانت متجاوبة تماما مع بقية مشاكلي ومتفقة معها في الاتجاهات، كمسائل التنازع والاعتداء والمغالاة في التمسك بحالات الرجولة، والاعتماد على النساء، والمخاوف، وحالات الرعب من الأب أو الرجال الأكبر سنا.. وإزاء هذه الظروف كان لا بد للتحليل النفسي من السير بطيئا حتى يستطيع بخطاه الوئيدة تغيير أسس "النماذج" و"الأوضاع" التي تسود ما يتصل بحياتي من علاقات جنسية..

وقد وجدت في أول الأمر أن "وصفته" العلاجية من الصعب قبولها لأن تعلقي بالمسائل الجنسية كان يبدو لي فريدا من نوعه، وكان الوحيد

الذي يسترعي اهتمامي بحيث تصبح الحياة عندي عقيمة بغيره ولكن سرعان ما تفهمت نظريات دكتور مكسويل عن العلاقات الجنسية، حتى في حياتي اليومية العادية..

وكنت – وقبل أن يبدأ علاجي النفسي – قد اتصلت بفتاة تدعى "مارتا"، وهي طالبة معي في الجامعة تدرس القانون، وكانت تعد نفسها لتبدأ حياتها القانونية كمدعية عامة في النيابة، وكانت لا ترغب في الزواج رسميا إلا بعد مرور بضع سنوات في علاقة جنسية معي على شرط أن تكون معتدلة وغير مقيدة بمطالب ملحة!. وكانت "مارتا" جميلة، ملفتة للأنظار، جذابة، ذات ذكاء، تحب الموسيقى، وهوايتها المفضلة "الجولف"، وكنت أبذل جهدي كي أنمي علاقة المودة بيننا.. كنت متلهفا على ذلك، ولكني لم أشعر مطلقا براحة من معاشرتي لها، لأنني كثيرا ما كنت أشعر بأنني خامد العزيمة، منقبض النفس، لا أستطيع أن أمنع نفسي من البكاء إلا بصعوبة شديدة، إذ أجدها وقد أصيبت فجأة ببرود جنسي فائق الحد.. لقد سبب لي هذا تعاسة لا تقدر، إذ كانت حماستي تزول كذلك! وكنت أحيانا ما أدرك أن شريكتي – لسبب مبهم – لا تظفر إلا بقدر محدود من السرور والثقة.. ولكنني لم أكلف نفسي فهم صفة ذلك السرور لديها أو عمق أثره فيها..

وفي ذات ليلة – في مستهل العام الثاني من علاجي النفسي – قالت لي "مارتا" مستفسرة:

"جون.. إنك تغيرت.. لا أستطيع أن أعرف كيف أصف لك ما أود أن أقوله.. ولكني أصارحك بأنني لا أخشاك الآن ونحن في الفراش، كما كنت من قبل!.. إنك الآن تقترب مني دون أن أخاف منك متصورة أنك مغتصبني اغتصابا دون إرادة مني!.. وأقول لك الحق، كنت وقتذاك فريسة شعور سخيف بأنك راغب في خنقي وإخماد أنفاسي في لحظة من لحظات جنونك ووحشيتك نتيجة الثورة الجنسية الصارخة في أعماقك.. وأنت الآن ما زلت قابضا على سيطرة الرجل وقوته.. عندك من الرجولة ما فيه الكفاية.. ولكن الآن بعد أن تراخت توترات غريزتك بعض الشيء عما كانت قبلا، فقد أخذت أشعر شعورا آخر.. فما الذي كان يحدث قديما ويسبب لي الخوف؟

هذا ما قالته لي، فكان وقعه مؤثرا دون ريب، ولكني غير مستعد الآن لمناقشة موضوع تحليلي النفسي مع "مارتا"، وبدلا من إجابتها قلت مازحا: "أنا جد مسرور يا عزيزتي "مارتا" لأنك لاحظت تحسن حالتك!"

إن هذه التغيرات التي لاحظتها "مارتا" قد تنبأ بها دكتور مكسويل، ووقعت كما توقع تماما عندما كنت أتقدم بخطى وئيدة في طريق التحسين، وحل مشاكلي جميعا.. كنت عاقدا العزم، مصرا على استمرار النزاع مع أبي والوقوف أمامه في موقف الند المناضل!. وهذا الإصرار خفف من عدائي لجميع من عداه من الناس، خصوصا الرجال!.. أما أولى خطوات استقلالي عن أمي فقد أخذت أعالجها ببطء وروية، وهذه

نتج عنها تجاوب إزاء النساء في اتصالاتي الاجتماعية العادية، وبجلاء ووضوح في صلاتي الودية مع مارتا.

وقد أخذت اتجاهاتي إلى الظهور بمظهر الرجل المتفوق في رجولته، تميل إلى ناحية الاعتدال وعدم الغلو.. ويبدو أن دكتور مكسويل كان على حق عندما قال أنه بمجرد ظهور تحسن أساسي معقول، فهذا معناه في جلاء ووضوح أن التحسن قد انتقل كذلك إلى مجال الجنس..

وقد يحدث أيضا تراجع وتقهقر، إذ في بعض الأوقات، عندما كنت أقف موقف المعارض مقاوما لدكتور مكسويل مناضلا في استقتال ويأس ضد محاولاته سبر غور مشاكلي والوصول إلى أعمق مما أبديت، كنت أشعر بتوتر نفسي، وجزع، واشتياق!.. كنت أكره أبحاثي العلمية في النبات التي تخصصت فيها!.. كنت أرغب في الهروب من كل الحقائق المؤلمة لأجد نفسي في مواجهة نزواتي الجنسية، وفي شوق شديد لإرضاء غرائزي في كل لحظة يمكن أن أوفرها من وقت وظيفتي!.. وعندما انتهى طور العصيان والثورة على التحليل النفسي، رأيت استجاباتي لنداء الجنس قد أصبحت جازمة قاطعة مرة أخرى، فكان من الممكن إذن الانتقال في تقدم إلى المستوى الناضج الكامل..

وكثيرا ما كنت خلال جلسة التحليل النفسي أعود إلى مناقشة علاقتي مع "مارتا" فيسارع دكتور مكسويل إلى عدم تشجيعي على إثارة هذه المناقشة قائلا أنها لا تفيد التحليل إلا بقدر قليل من الأهمية، ولأنه

شعر بأنني في بعض الأوقات كثيرا ما ألجأ إلى محاولة النقاش في ذلك الموضوع – وهو علاقتي بمارتا – لأتهرب من مواضيع أخرى مؤلمة عميقة الغور ممتدة الجذور.. وفي إحدى المرات، عندما أصررت على أن أروي تفصيلات لقاء مع "مارتا" في عطلة أحد الأسابيع، أخذ يشرح لي في لهجة تشوبها بعض المرارة والحدة قائلا:

"أحسب أنه من الخير ألا نهتم كثيرا بموضوع غرامك، خصوصا وأن العلاقة الجنسية ليست لها الأهمية التي تتصورها، ولكن من الجوهري لك أن تدرك موقف شخصيتك، وسماتها العدوانية القاسية، وروح الشر المتسمة بنزعة القتل وما تتركه هذه كلها من تأثير في نفسيتك وحياتك.. وبعد كل ذلك فالعلاقة الجنسية لا تحدث أثرا كبير، ولكن عد بفكرك إلى الرغبة في القتل، وما نتج عنها.. إن الرجال لا يفسقون بالنساء عن طريق الاغتصاب، لأن في استطاعتهم أن يشبعوا غرائزهم الجنسية عن طريق الاتصال بالعاهرات، وهم يعلمون أنهم يمارسون قوتهم الغاشمة مع المخلوقات الأضعف منهم، ويملون رغباتهم عليها!. ألم يلفت نظرك أنه لم يحدث قط – أو حدث نادرا – أن كتبت الصحف خبرا يروي أن نساء قمن بارتكاب جرائم القتل الجنسي خضوعا لنزعة جنسية؟.. هذا بينما تكتب الصحف قصة بعد قصة عن جرائم اغتصاب جنسنا الخشن للجنس الآخر!.. إذن فليس الإشباع الجنسي هو الدافع، وإنما نزعة الشر، وحب السيطرة والدم هي التي تجعل من الرجل وحشا يلذه أن يغتصب المرأة ويفسق بها كرها، لا لشيء إلا لأنه مدفوع بذلك بغريزة السيطرة.. هذا جزء منهم جدا من الحالات الاعتدائية التي تقع في

أيامنا هذه، وهي مجال حيوي تستطيع أن تجرى فيه اكتشافاتك، لأنك –كأغلبية الرجال في مجتمعنا – مدفوع أيضا بعداء فائق الحد"

كانت هذه الجلسة من الجلسات النادرة في سلسلة الجلسات الطويلة التي قضيتها مع دكتور مكسويل، والتي أراد فيها أن يلقي علي درسا مهما مجديا.. وغالبا ما كنت أطلب إلى دكتور مكسويل إيضاحا عن عقدة أوديب. إنني كأغلبية الناس قد تقدمت إلى العلاج النفسي ورأسي ملئ بخليط من الآراء عن علم النفس.. لقد قرأت – كما قرر دكتور سيجموند فرويد – أن صراعاتنا الانفعالية الجوهرية تكشف عن نفسها ويبدو واضحة عندما يسوء الموقف الأوديبي ولا تتحسن إلا إذا صح وضع هذه العقدة وسويت حالتها بالتحليل النفسي..

وعقدة أوديب التي ذكرت في أساطير الإغريق تتلخص في أن أوديب قتل أباه دون أن يعرف أنه والده، وتزوج من أمه، فلما عرف الحقيقة – ولو أنه غير ملوم أصلا في الواقعة – فقأ عينيه لهول إثمه عقابا لنفسه على هذه الجريمة الشنيعة!.. وكما فهمت أطلق "فرويد" اسم "أوديب" على المشاعر التي تدور في نفس الطفل حول ميله لا شعوريا للاستحواذ على أمه واستئثاره بها دون أبيه الذي يبدو في نظره منافسا خطرا له، فينظر إليه كأنه عدو لدود يناجزه العداء ويشعر بالغيرة منه، وقد يتخيل في بدواته وأوهامه أنه قتل أباه وتزوج من أمه!. ثم بعد ذلك يشعر بالرهبة والخوف من أن أباه سيقرأ حتما أفكاره، وأنه بعد أن

يكتشف نواياه المجرمة سينتقم لنفسه منه بتدمير أعضائه التناسلية أي بإخصائه.

والحل السليم لهذا الموقف الأوديبي، أن يتقمص الطفل شخصية أبيه، ويتطبع بطباعة، ويسعى في المستقبل إلى البحث عن فتاة خاصة به كما أن لأبيه امرأة خاصة به، وبذا تتبدل نزعات الشر فيه إلى علاقة طيبة بأبيه. فإذا تعذر على "عقدة أوديب" أن تكشف عن نفسها بالطريقة الصحية فربما استمر الطفل بقية حياته يعاني من وقوعه فريسة الخوف من الخصاء، مما يسبب له اضطرابا شديدا في علاقاته الجنسية بالنساء.

ولقد رأيت خلال أحلامي أمثلة من الصراع الذي تسببه "عقدة أوديب" وبدأت أشعر بالخشية من أنني فقدت شيئا له أهمية، شيئا حيويا جوهريا، فلما سألت دكتور مكسويل عن ذلك أجابني في بساطة قائلا: "يجب ألا تنزعج من أجل ذلك.. إن ما يهم في هذه الحالات أن تتغلب على مشاكلك الأساسية التي تتنازع مجرى سيرك في الحياة والتي تبرز في علاقاتك مع الناس.. هذا هو ما ينبغي أن تهتم به.. أما ما عداها فهباء لا وزن له"

لقد مضى وقت طويل.. خمس سنوات.. منذ ذلك اليوم عندما صحت قائلا لدكتور جولد شميدت: "يا لجهنم الحمراء يا دكتور جولد شميدت!. أنا واثق من سلامة حياتي الجنسية"!.. وكانت لهجة قولي وما فيها من تعجب ودهشة صادرة من أعماق نفسي.. لأنه – طبقا لما جرى

عليه العرف عن الجنس – لم تكن لدي مشكلة حقيقية في حياتي الجنسية.. لقد كنت أختلط مع النوع الآخر بطريقة طبيعية فيها تودد وملاطفة تقليدية كما يحدث عادة بين الرجل والمرأة، وكنت أمارس هذه العملية في حيوية ونشاط وخبرة ظاهرة، ولم يكن لدي أبدا أي دافع نحو ممارسة العملية الجنسية مع النوع المماثل، أو أي انحراف عن "القواعد" العادية.. وهذا ما كنت أعنيه لما أردت إقناع دكتور شميدت بأن حالتي الجنسية لا غبار عليها.

ولكن الواقع أنه كانت هناك أخطاء كثيرة ومشاكل عديدة وثيقة الاتصال بحياتي الجنسية، مشاكل يرجع عهدها إلى الماضي البعيد في طور طفولتي، إنني الآن أرى في وضوح تام المشكلة الحقيقية أو أم المسائل.. أراها وقد حلت وسلس قيادها ثم تهاوت وزالت، لأنني تعلمت وأدركت أن السعادة العميقة يمكن للإنسان أن يجدها في الصداقة المتينة التي تسود العلاقة الجنسية بعد أن تزول الحواجز الزائفة.. وكان لا يمر وقت طويل حتى أعثر على المرأة وأهبط عليها كغريب من سمائي التي يطلق عليه اسم "الرجولة" ثم أدخل إلى دنياها لأبدأ المعركة.. لأستحوذ عليها بأي ثمن!.. ولكن الآن تبدلت الحال.. ليس الأمر كما كان قديما.. لا أود أن أشبع غريزتي الجنسية وأقنع بتلك العلاقات التي لم يكن يكلفني جني ثمارها غير التقدم خطوة وإذا بي أنال الثمرة الشهية. إنني أود أن تكون علاقتي الجنسية مرتكزة فوق قاعدة من التفاهم والرقة التي تنتج عنها رغبة جسدية، واشتهاء متبادل بين الطرفين لا أشعر فيه بعداء نحو شريكتي.

لقد أدركت الآن أن العناق يختلف عن العناق السابق، بعد أن تغلبت على كراهيتي التي كانت تملك زمام نفسي، ولم تعد هناك بعد عمليات جنسية يعقبها الخوف من عدوى المرض الخبيث، وأصبحت الدوافع التي لها المقام الأول عندي لا تتسم بغير الصداقة والحب، وهي التي يجب أن تكون الأسس التي تبنى عليها الرغبة الجنسية والاشتهاء العاطفي.. علما مني بأن هذا الحب لا بد أن يكون متبادلا..

وقد أدركت أن هذا من المستطاع تحقيقه، وفي دهشة وذهول تبين لي أن "مارتا" قد أظهرت ما أنشده.. إذن فمن المستطاع أن تبادلني الحب نظير حبي القوي الصادق..

وقد نتج عن نمو هذه الرغبة وهذا الاشتهاء النقي الجديد انفعالات ذات معان تتصل بالعلاقات الجنسية، والفضل في ذلك للتحليل النفسي، وكانت المعاملة الطيبة التي يخصني بها دكتور مكسويل قد منحتني أيضا القدر الكافي من الاستقلال الانفعالي والقوة النفسية التي تمكنني من تأسيس بيت وأسرة، وبث في أعماقي الرغبة في أن أكون والدا سويا، أنا راغب أشد رغبة في الزواج لأني شاعر الآن بأن العلاقة الجنسية تنمو خلال الصداقة التي لا تنتهي بالزواج أو في انتظار مجيء الأطفال..

الفصل السادس عشر

الخنوثة

"انطباعات من مئات الأنواع: حسية، حيوية، محببة، متعددة الألوان"..

جوته

"لا تبدو هذه الحادثة ذات أهمية يا دكتور مكسويل. ولكنها طرأت فجأة على فكري.. وقد رأيت أن أذكرها لك، ولو أنني أشعر بالخجل من أجلها. لقد ارتكب صديق لي حماقة في الليلة الماضية جعلت منه مغفلا ساذجا... إنه أحد الكيمائيين في الشركة الزراعية معي.. شاب ظريف من العزاب الراسخين في العزوبية. دعانا هذا الأعزب العريق – نحن زملاء – لتناول الغداء عنده، وكان هو الطاهي البارع الذي أعده!.. ولقد أضاف إلى ألوان الطعام العادية لونا آخر جديدا من اختراعه وقدمه لنا كنموذج لمهارته في الطهو.. وقد ظل العجب مستحوذا علي طول المساء وأنا أفكر في "جاك" لقد كنت أعتقد أنه ليس من الصواب أن يجد الرجل متعة كبيرة في طهو الطعام" .

فلك يضيع المحلل القابع وراء المضجع كثيرا من الوقت لسبر غور هذه الظاهرة، بل قال متسائلا: "وما الذي يزعجك ويشغل بالك من

هذا؟.. دعنا ننظر في الأمر: أليس هناك عظماء في كل فن من الرجال؟. فهل اشتمل رد الفعل عندك على عنصر من عناصر الجسد؟"

لقد دارت خواطري عن صديقي "جاك" في تلك الساعة حول طهوه للطعام وإجادته هذا الضرب من الهواية.. وأخذنا – أنا و دكتور مكسويل – نتناول هذه المسألة بالتشريح الكامل.. وقد كنت – لحد ما – على استعداد لمثل هذا النقاش.. فقد سبق أن ناقشنا من قبل خواطري الحرة عن الرجال المخنثين أشباه النساء، وكانت تلك الخواطر التي خطرت لي وقتئذ نقطة أو نقاط تهديد – كما يظهر – مسلطة على رجولتي أنا شخصيا!..

وكان الدكتور مكسويل – كما ظهر من تصرفه – غير راغب في سبر غور هذه النقطة الحساسة قبل أن يستطيع جني محصول أوفر، ولا شك أنني كنت في موقف عدائي، مناجز من "جاك" في حين أنه لم يكن هناك دافع يدفعني لهذه المناجزة!.

في بعض الأوقات يكون المرء أكثر تذكرا للأمور منه في أوقات أخرى، وقد أضاءت تلك الساعة التي ناقشنا فيها خواطري تجاه جاك "قطاعا" مهما من انفعالاتي وإحساساتي، إذ كان واضحا أنني ربطت موضوع طهو جاك مع تدبير المنزل الذي تقوم به النساء.

وكشف لي دكتور مكسويل عما كنت اجهله.. أراني أن عقدتي النفسية منعتني من مقارنة مائدة "جاك" بمائدة الطعام الفخمة في فندق

"ريتز شيري" حيث الطهاة من الرجال، وهي مقارنة لو تمت لأمكن كبح جماح ثورتي أو على الأقل التخفيف من غلوائها، ولأمكن أن أفاخر في اليوم التالي بمثل صديقي "جاك" الطاهي الهاوي، الذي يستطيع أن يتبارى في الطهو مع قادة فن الطهو!.. وهنا أقرر أنني – أحيانا – أقوم "بتجارب" في الطهو، وأحاول كشف طرق أخرى لطهو البيض، طعامي المفضل.

وزاد دكتور مكسويل على ذلك أنه لاحظ أنني أشرت مرارا عند إفضائي بخواطري وأحلامي إلى أنني أتقن صناعة الكوكتيل وغيره من المشروبات الممزوجة!. وهي خبرة لا تختلف كثيرا عن الخبرة التي أظهرها صديقي "جاك" في مأدبة أمس لأصدقائه.

وقلت لدكتور مكسويل: "إني أفكر.. أعود بذاكرتي إلى الوراء.. ولا أستطيع "هز" الصورة.. إن المشهد نصب عيني الآن.. في بيت أسرتنا القديم في "ميدل تاون".. إنني سعيدا جدا.. أمي صرحت لي بأن أصنع "الآيس كريم".. إنها تفضل استعمال آلة قديمة لصنع "الآيس كريم" ذات طراز عتيق لها ذراع تدار باليد!.. وكان عمري خمس سنوات.. وبعدما انتهيت من العملية قبلتني أمي وأعطتني جانبا كبيرا من الجيلاتي المحشو بالفاكهة والمكسرات في كوب كبير.. لقد كانت "آيس كريم" من الفراولة، وهي النوع المفضل عندي من المثلجات.

"وأذكر كذلك مشاهد مشابهة من الماضي وأنا في طور الطفولة عندما كنت أتبع أمي في تحركاتها وهي تعمل في "المطبخ" وأساعدها في تجهيز الطعام، وقد وضح لي في سرعة وصفاء أن فن "الطبخ" كان متصلا تماما في عقلي بعلاقتي بأمي، وطريقة الحياة النسائية، وأن صديقي "جاك" وهو في بيته قد استولى قسرا على المكان الذي كنت أحتفظ به في ذاكرتي، وهذا هو السبب في أنني كنت منزعجا منفعلا في ذلك المساء برغم ما ظفرت به في دعوة الغذاء من طعام شهي ومتعة بالصحاب"..

وقد التقت وجهة نظر دكتور مكسويل مع ما أبديت من آراء، ثم أضاف تعليقا من عنده بأسلوبه المعتاد، وفراسته الحادة البارعة فقال: "إن جاك بطريقة ما، ولأسباب خاصة في الغالب أكثر براعة من والدتك في فن الطهو.. وهذا هو السبب الذي جسم من رد الفعل عندك، وسبب هذا النكوص"

وقد أدركت أن دكتور مكسويل يريدني أن أحاول فهم مسألة جاك كجزء من عقدة الخنوثة التي سيطرت علي. وقد صادفت رغبة دكتور مكسويل تجاوبا عندي لأنني كثيرا ما كنت فريسة إرغام شديد يجعلني أعتبر كل حرفة أو صنعة إما "مذكرة" يقوم بها الرجل، أو "مؤنثة" تقوم بها المرأة ولا تطفل من أحدهما على الآخر في "اختصاصه" أو إقحام!. وقد كانت حياتي فعلا في "ميدل تاون" ذات نظام رتيب صارم بسبب هذه العقدة النفسية.. كنت متعصبا للرأي الجامد الصارم الذي يقول أن المرأة

لها حقلها، والرجل له حقله فلا ينبغي أن يقحم أيهما نفسه على الآخر!. مثال ذلك أنني لبثت سنين عديدة محاولا أن أجد الشجاعة الكافية لألعب "التنس" أو "الجولف" بدلا من اللعبة الأكثر رجولة "كرة القدم" لأنني كنت محاصرا بخوفي من "العقدة"، ولم أتغلب عليها إلا بمشقة وبعد زمن طويل!..

وقلت للدكتور مكسويل: "يظهر أن ذلك حدث لي قديما وأنا غلام صغير عندما أرادت أمي أن أحاول تعلم الموسيقى، خصوصا الكمان، فكان رفاقي من الأطفال يقابلون ظهوري وأنا أحمل "الكمان" ذاهبا إلى معلم الموسيقى بصياح مرتفع قائلين "المخنث".. كما لو كنت غلاما له مظاهر الأنوثة لا لشيء إلا لأنني أحمل آلة الموسيقى "الكمان" لزعمهم أنها آلة موسيقى "مؤنثة"!.. ولذا كانت تلاحقني "عقدة الأنوثة" أينما سرت في طرق "ميدل تاون" في هندام ملفت للأنظار، وإن يكن كل ما فيه خاصا بالذكور.. واشتدت توترات نفسي حتى أنني أذكر أنني رجوت أمي أن تطلب من معلم الموسيقى أن يعطيني الدرس في البيت، وفي يوم الدرس كنت أغلق جميع نوافذ البيت، حتى في فصل الصيف!.

وفي المدارس الثانوية كانوا إذا ما لاحظوا خنوثة في تصرفات الطالب لا يقرون إلحاقه بقسم الآداب، خصوصا الشعر، أو اشتراكه في نوادي التمثيل أو الفنون لأن في هذا الإقرار خطورة! مع أنني كنت راغبا أشد الرغبة في التعرف على فن القصة، وكتابة المقال، ونظم الشعر في

تلك الأيام.. أيام الدراسة الثانوية، واقرأها في شوق ورغبة، ولكن في الخفاء.

والأغلب أن اختياري التخصص في الكيمياء ودراستها لتكون مهنتي يرجع لتلك العقدة اللعينة "عقدة الأنوثة" التي كنت فريسة لها، ولأنني حسبت موقنا – في ذلك الوقت – أن الكيميائي معناه في نظري، الشاب ذو القبضتين المتينتين الذي يمضغ الطباق، والذي يغامر بحياته لإجراء تجاربه أمام فرن متوهجة النار.

أنا أعرف مثل هذا النوع من الكيميائيين.. أعرف كيميائيا من هذا الطراز، وهو والد أحد زملائي، وكنت على الأرجح صالحا تماما لتدريس مواد الرياضيات، والطب، والعلوم الطبيعية، ولكن المدرسين الذين كانوا يدرسون هذه المواد في المدارس الثانوية كانوا – في نظري – لا يتمتعون بالصلابة والظهور العدواني الذي يجب أن يتوفر في الرجال، ليسوا من الطراز الذي يملك هذه الخصائص "المذكرة"..

ومن حسن الحظ، فرغما عن البواعث العصابية في نفسي، فإن قراري بأن أكون كيميائيا قد جاء متفقا مع نبوغي وتفوقي في دراستي، ومؤخرا بعد ما دخلت الجامعة وأخذت "عقدة الرجولة" تتقهقر متراجعة، أخذت أنفض عن كاهلي خديعة نفسي وتوهماتي بأن الكيميائي لكي تتوفر فيه الصلاحية يجب أن يكون كالترس الذي يحدث الضوضاء في مصنع الصلب أو بعبارة أوضح يجب أن يكون "جعجاعا" مشاغبا..

وقد كان أكثر نشاطي تحركه هذه العقدة "المذكرة".. عقدة الرجولة، البالغة الأثر في تصرفاتي واتجاهاتي.. فكنت مكرسا نفسي للقنص، وصيد الأسماك، وتسلق الجبال، ناظرا بازدراء للعبة الجولف، ولعبة التنس!. ولم يكن هناك في الجانب النسائي الذي يبدو في شخصيتي غير هوايتي الموسيقى، ومع ذلك فإنني لم أشترك أبدا في عزف ثنائي أو في قاعة موسيقية مع النساء، وكان اشتراكي مقصورا على الرجال والأشخاص مكتملي الرجولة.، وكنت أهرب من الموسيقيين البارعين إذا تبين لي من مظهرهم أن بهم رخاوة أو خنوثة!.

وقد قوت علاقاتي الجنسية وأنا في الجامعة من الصراع الدائر في نفسي بين الوضع "الرجالي" والوضع "النسائي"، حتى أثبت بالتجربة أنني لست فاقد الرجولة.. لقد كنت مبيتا النية على ارتياد أحد بيوت الدعارة للتأكد من صواب فكرتي ولكني خشيت الإصابة بمرض خبيث، ومع ذلك فلم أجد سعادة في ذلك الطراز من العلاقات الجنسية التي كانت تشجعها فلسفة "ميدل تاون".

وقد ألفيت نفسي بعد انتحار "هيلين" والهزة التي شملت كياني من هذه الصدمة.. ألفيت نفسي في فراغ يحتاج إلى أن يملأ.. وقد ساعدني انشغالي بالعلوم، ولكني لم أستطع أبدا أن استمر في عملي داخل المعمل لمدة أسابيع متوالية كما يفعل بعض الناس!.. فلم أتريث في العودة إلى هوايتي ورغبتي القديمة في الآداب والشعر وأخذت أوسع رقعة قراءاتي، وكان ذلك الوقت أول اتصالي بالمفكر الفيلسوف "ليو

تولستوي" فقرأت "الحرب والسلام" ثم "آنا كارنينا" ثم "البعث"، وكل كتاب من هذه التحف الأدبية خلق شيئا جديدا في حياتي.

وعلاوة على تحف "تولستوي" قضيت العديد من الساعات المتعة مع "توماس مان" و"رومان رولان" و"جورج برنارد شو".. أما "دستويفسكي" فقد كان عمله كالجرف المنحدر يصعب الوصول إليه.. كان بعيد المنال على شخصيتي الفائقة الحساسية، فلم أفهمه ولم أدرك مرامي كتابته، ولكني بعد بضع سنوات، وبعد تحليلي النفسي صار في مقدوري أن أفهم عبقريته الحقة.

وعندما أخذت عقدة الرجولة عندي ينطلق بخارها في أعماقي، بعد أن قاربت الانتهاء من سني دراستي في الجامعة أصبح في مقدوري أن أبدأ صداقة جديدة.. علاقة كنت أتجنبها وأنكرها من قبل، وهي علاقتي بأحد زملائي في الدراسة "ماكس" الذي كان يود دائما أن يكون لي صديقا.. وكان فتى مرهف الحس، كريم الخلق، مهذب الطباع، كان يندر أن يخرج مع الفتيات للنزهة ولا يميل إلى الرحلات الجماعية، ولا يرتاد المشارب أو الحفلات التي تعج بالجماهير التي تتعاطى المسكرات دون قيود وربما بلا ثمن، ولكنه مع هذه الصفات لم يكن على كل حال من الطراز الذي تتوفر فيه الجنسية المثلية..

وكنت في أول عهدي بالدراسة الجامعية أتجنب الاتصال به لأنه لم يكن يميل إلي، أو تجتذبه فلسفتنا الماجنة التي تسود جماعة أصحابي

ولذا فقد اعتبر – لحد ما – من النوع الرخو "المخنث".. وفي إحدى الأمسيات، بعد انتحار "هيين" كنت منقبض النفس مكتئبا وفي حاجة إلى صحبة تدفع عني ما أشعر به من وحدة قاتمة وحزن أسود، وبدلا من تهربي المعتاد من موعد نسائي قطعته على نفسي أو الذهاب إلى دور الملاهي قررت أن أزور صديقي "ماكس" فلقيني مرحبا، فعرضت عليه أن يقوم بجولة معي قائلا: "هيا نقوم بجولة.. إنني في حاجة إلى هواء الربيع ليزيل عني ضيق الفن فاقترح أن أرافقه".. وفي الطريق إلى هناك أخذ يروي لي شيئا عما يود أن يراه من أعمال فناني القرن التاسع عشر الفرنسيين، وعن الصور الرائعة التي تعد من عمالقة التحف الفنية، ولكنها كانت في نظري أسماء عادية غير مثيرة ولا تستحق هذه الضجة التي تثار حولها أو الهالة التي يحيطونها بها.. إنها مجرد أسماء رأيناها اتفاقا فلم تسترع اهتمامي، أما "ماكس" فكان يجد فيها مصدر متعة جديدة ومسرة بالغة.. ويتحدث عن لوحات "سيزان" و"رينوار" و"جوجان" في ألفة حارة!.

وأعترف بأنني لم "أكتشف حقا كل أنحاء متحف الفن.. لقد زرته نعم في أحيان قليلة، ولمحت لوحات الفنانين المشهورة بنظرات خاطفات بنصف حماسة أو رغبة.. وقد زاد ضيق نفسي عندما زرت إحدى قاعات المتحف وهي التي تحتوي على لوحات لمصورين مشهورين من الإنجليز وهم "جينز بورو" و"لورانس" و"رومني"

ولاحظ صديقي "ماكس" هذا الضيق فضحك قائلا:

"إن لديك مقدرة فنية ونظرة صائبة. حقا إن اللوحات الفنية الإنجليزية قد بدأت وانتهت منذ عاش المصورون الأفذاذ "هوجارت" و"تيرنز" و"كونستابل"، وحتى لوحة "جينزبورو" التي قيمتها مليون دولار والمسماة "الغلام الأزرق" قد قدرت قيمتها بأكثر مما تستحق، كان في ذلك التقدير خطورة لأنه يقود الجمهور ويلفت أنظاره إلى مدرسة كئيبة معتمة من مدارس الرسم"

ثم استطرد يقول: "ولكنك سترى اليوم شيئا يختلف كلية عما سبق أن رأيت.. أنت موسيقي من الهواة، وهذا الذي ستراه اليوم أشبه ما يكون بانتقالك من عزف "كوبرين" البهيج، السهل، المتألق، إلى العبقرية التي توقعها أنامل "بيتهوفن"، واليوم ستمر بتجربة سماع النغمات التصويرية البديعة وهي ترن في أذنيك.. في مخيلتك.. ستسمع عبر الماضي تلك المقطوعة الكثيرة الزخارف المقطوعة التي لحنها "كروتزر" ووضع موسيقاها الخلابة عن "فن التصوير".

وقد كان "ماكس" على حق. لقد طلعت على دنيا جديدة مشرقة براقة متألقة، قابلتني عندما دخلت القاعة. رأيت لأول مرة لوحات "جوجان" التي تهز المشاعر وتخلب الألباب بتلوينها البديع المتقن. شعرت كما يشعر الأعمى عندما يسترد بصره بعد أن يرفع الطبيب الرباط عن عينيه في يوم مشرق من أيام الصيف الصافي. لقد أخذت مقطوعة "كروتزر" تشدو في أعماقي وأنا أتنقل من لوحة إلى لوحة!. وكما قال "ماكس" رأيت شيئا يختلف عما سبق أن رأيت.. إن الفرق ظاهر بين

أولئك العمالقة من رجال التصوير الذين ملأوا الدنيا بهجة وإشراقا، بما أظهروا من فن بلغ الذروة.. كل في مداره ومدرسته ومهارته التي تختلف عن غيره من زعماء الفن زملائه، ولكن كان كل منهم في القمة!

وبعد أن انتهينا من زيارة متحف الفن انصرفنا بعد أن تأكد "ماكس" من أنني أفعمت نشوة وإعجابا، ومنذ تلك اللحظة لم نكن نفترق، وتوطدت عرى صداقتنا، وأخذ يقدمني تدريجيا إلى رجال الفن من أساتذة الموسيقى إذ أدرك أنني كعازف كمان من الهواة مشغوف بالأنغام التصويرية التي تعبر عن مشاعري، وأن لي خبرة ذواقة في هذا النوع من النغم، وكانت درايتي الفنية، وإحساسي الموسيقي وتذوقي للأنغام متوسطة، إلا أنني كنت أستطيع أن أوقع اللحن في حرارة وألون أنغام عزفي وأضفي عليها حرارة تجعلها مشجية.. وقد "خمن" ماكس، وكان "في محله" أن الألوان الحارة التي جذبت أنظاري في الصور البارعة التي رأيتها سيكون لها نفس التأثير الذي تحدثه حرارة الأنغام التي تنقلها الموسيقى الشجية إلى أذني؛ فقدمني كما قلت إلى عمالقة الفن الموسيقي وأساتذته أمثال "مانيت" و"فان جوخ لا" و"كوربت" و"دومير".

ولما زالت الكلفة بيني وبين هؤلاء، كما زالت بيني وبين "كاسات" و"بيسارو" و"سيورات" و"كلود مونت" وآخرين من عظماء المصورين في ذلك العصر البارز في تاريخ الفن الفرنسي.. أخذ "ماكس" يعرفني بأولئك الفنانين الذين أصبحوا في ذمة التاريخ، وأخذ يوضح لي "جويا"

و"الجريكو" و"فالاسكوز" كان اهتمامهم منصبا على التصوير الذي يتميز بإتقان التلوين حتى لتبدو الصورة كأنها أنغام موسيقية مرسومة..

وكان فنانو "الفلاندر" و"إيطاليا" البارزون منبع سرور عميق لي أيضا، ولكن قبل أن أرى لوحات الفنان الموهوب "ميشيل أنجلو". ولم يحاول "ماكس" أن يثير اهتمامي بالفن المعاصر، وكان السبب الذي أبداه معقولا وله أهميته، إذ قال: "أنت مازلت فريسة بعض التوتر النفسي، وما زلت في حاجة إلى صلاحيتك للدفاع عن الفن حتى يمكن أن تقطع الطريق كله مع "بيكاسو" و"براكو" و"كاندينسكي" و"شاجال" وآخرين غيرهم من الذين سوف يأتون فيما بعد"..

لقد كانت شهورا منعشة من الصداقة الخالصة بيني وبين "ماكس" برغم ما كنت أشعر به دائما – وفي الخفاء – من القلق والانزعاج لأن طريقته في الحياة كانت متسمة بالرخاوة، والمظهر النسائي!. وكنا نرتاد دور التمثيل فشاهدنا الكثير من المسرحيات: مسرحيات العظيم "شكسبير"، والكوميديات الموسيقية، وكانت السيمفونيات والأوبرات الكبرى مصدر سرور وترفيه ممتع. وعلاوة على تكريس نفسه للفن كان "ماكس" في ذلك الحين قد بدأ يدرس "تشريح المدن" والتعرف على خفاياها الاجتماعية في رغبة ملحة، وكان يجد في هذا لذة عظمى حتى أنه غير مجرى حياته العلمية من دراسة الكيمياء إلى علم الاجتماع، وكان يبدو عليه أنه يعرف كل شيء عن "مدينة الجامعة" كل ركن فيها!.. وبعد قضاء بضعة شهور في رفقته كنا نكشف عن خفايا الطرق، وملحقاتها

الخفية الكئيبة الكالحة في الليل أو في أيام العطلات الأسبوعية، سيرا على الأقدام، أو في عربات الأجرة أو الحافلات.

ومن سوء الحظ أن "ماكس" غاب عن حياتي فجأة كما دخلها.. لقد تخرج في نفس العام ولم يعد إلى "ميدل وسترن"، أما أنا فقد قبلت في قسم التخصص في الكيمياء، وبدأت أبذل جهودا بالغة لدراسة المقررات الأرقى، وفي إعداد تجاربي وبحوثي.

وقد كان الحصول على درجة التفوق في الكيمياء بين طلاب الجامعة نزالا حارا، صراعا حقيقيا، لأن الأساتذة يصرون على أن يكون للطالب سجل عال حافل بالتفوق في تأدية الامتحان الدراسي، وقبل الامتحان النهائي يجب أن يكمل بحث ناقص بواسطة الطالب المتقدم للاختبار، وكنت أتلهف شوقا على أن أكون دائما في القمة، وأن أنتهي من دراستي للتخرج في سنتين أو ثلاث بدلا من الأربع..

وكان لحصولي على درجة "الدكتوراه في الكيمياء" مغزى خطير خاص، إذ معناه استقلالي عن أبي، وحريتي، وإفلاتي من قبضته، ولذا فقد تفرغت في سرعة لدراستي التعليمية دافعا نفسي إلى أقصى سرعة، فريسة للقلق والاضطراب كلما حل موعد الامتحانات.. وقد تبخرت إرشادات صديقي "ماكس" وأصبحت في طي النسيان وهي التي كان يسمعني إياها مبشرا بحياة أكثر خصبا، وطريقا أعرض أفقا لو اتبعتها وعملت بها..

إن التهرب من العمليات الجنسية العارضة لم يكن سوى "تزمتا" فظا تغلغل في كياني لأنني لم أسمح لنفسي بالاسترخاء مدة كافية حتى أوطد علاقتي، وكانت قرحة معدتي على الأرجح هي "الاحتجاج" الطبيعي ضد "الحافز" الذي كنت أرضخ له خلال أطوار الشدة التي تحيق بي. وكان من الممكن أن تظل "عقدة الأنوثة" مسيطرة علي مدى الحياة دون ريب جاعلة حياتي جحيما من الشقاء لو لم أتقدم للتحليل النفسي..

كانت هذه العقدة عميقة في نفسي، متشعبة الجذور حتى كان من المرجح أن يلازمني الشعور بالضيق والكبت ضاغطا على دوافعي مدى الحياة لأبقى بعيدا عن نطاق ميلي إلى الفنون، ولكن بعد التحليل زال الكثير من توتر نفسي، وكبت مشاعري حتى أنني أصبحت على وفاق شامل مع حبي للتصوير والأدب والموسيقى..

وأحسب أن عقدة الأنوثة خفت وطأتها بعد أن اكتشفت شيئين:

الأول أني عرفت أن رجل الكهف "مائة في المائة" صورة هزلية مضحكة للذكر العادي، لأن الرجل يحمل بعض السمات التي تتصل اتصالا وثيقا بمظاهر الأنوثة، وأن جاذبية الرجل الناضج الكامل تكمن في الخلط الجذاب للرجولة والأنوثة معا..

والشيء الثاني أن "عقدة الأنوثة" فقدت العون والمساعدة عندما تمكن التحليل النفسي من بث الإقناع الكامل في نفسي بإدراكي أنني رجل "كامل الرجولة"..

بذلك التأكيد الذي وصل إلى الصميم من شخصيتي لم يعد هناك من حاجة إلى أن أحاول قسرا أن أثبت للعالم رجولتي، ومن ثم استطعت أن أفهم الاستجابات اللا شعورية التي كانت تعترض طريقي. من ذلك ما رويته يوما للدكتور مكسويل.. قلت:

– كان لي صديق لا حديث له إلا عن الجنس.. لا شيء في عقله إلا الحياة الجنسية.. هوايته المزاح مع السيدات المتصنعات الحشمة بالتحدث معهن عن صدورهن وإطرائها!.. أحاول أن أتذكر شيئا عنه كان سببا في شدة توتر نفسي.. أوه.. نعم.. ها قد تذكرت.. لقد قال لي مرة أن رجلا من النوع المنحرف جنسيا قد احتك به في مبولة عمومية، فثار غاضبا ورفس الرجل بقدمه وطرده بعيدا.. ولما آوى إلى فراشة لم يستطع النوم وظل أسبوعا لأنه كان دائما يرى الحادثة نصب عينيه!

وما كدت أصل إلى هذه النقطة من حديثي حتى صحت قائلا:

– لقد فهمتها يا دكتور مكسويل الآن.. إني أحدثك عن نفسي.. أيضا!. ولو أنني في حادثتي لم أكن شديد النشاط، سريع العمل مثل صديقي.. لقد حدث لي مثل هذه الاستجابات ولكنني الآن بعد التحليل النفسي، أو القسط الذي ظفرت به منه حتى الآن، أستطيع أن أواجه كل متاعبي النفسية وتوتراتها.

ومن تلك الذكريات، وتلك البراهين الدامغة أخذت تدريجيا أبني طمأنينة معقولة كرجل لا غبار عليه.. وأصبحت عقدة "الخصاء" لا تذكر

إلا نادرا جدا.. وسنحت فرصة ذهبية كانت عنصرا حساسا في القضاء على خوفي من الخصاء، لقد حلمت حلما يتصل بموضوع الخصاء اتصالا مباشرا: "أنا في سوق الجزارة في "ميدل تاون".. كان هناك العديد من أنواع السجق وحلقات اللحم مدلاة من سقف المحل.. بدأ الجزار يقطع الشرائح.."

وهنا استيقظت مرعوبا من هذا الكابوس!. فلما نوقش هذا الحلم، وما ارتبط به من خواطر كان واضحا أن المبحث الأصلي هو خوفي من الخصاء بواسطة أبي!.. وكان من شأن مناقشة هذا الحلم وغيره من الأحلام المماثلة وكذا خواطري الحرة أن يمنحني أكبر الضمان على رجولتي، وساعدت على القضاء على "عقدة الخصاء"..

خاتمة

"سيطلع الفجر ويبزغ في أعقابه الضوء.. إنه الفجر نفسه الذي ينبثق ضوؤه منذ آلاف السنين"

آلان باتون

في ذات يوم خلال العام الثاني من تحليلي النفسي أخبرني دكتور مكسويل أنه دبر رحلة في الأسبوع التالي لحضور اجتماع طبي في إحدى المقاطعات البعيدة وأضاف إلى هذا قوله: "لقد حان الوقت لإعدادك لافتراق أحدنا عن الآخر وقتا أطول ثم أكثر طولا" ..

وكان قد أعدني في أول طور من علاجي لأن اعتاد مثل هذه الفرقة أو "تعطيل" العلاج، واعتراض سيره.. وكان متأكدا من أنني أدرك ما هو الغرض من وراء إلغاء بعض الجلسات ولو أن الفرقة بيننا كانت مؤلمة، خصوصا إذا امتدت لأسبوع.. وقد أراد دكتور مكسويل أن يخفف عني ألم "الصدمة" عندما أخبرني بهذا الفراق القادم، فطلب مني بأن أتصل به تليفونيا فيما لو كانت توترات نفسي أو جزعي مما لا يحتمل.. وقد مرت الأيام في مد وجزر، وانتهى الأمر بي إلى الشفاء التام بفضل ذلك الرجل العظيم دكتور مكسويل الذي كان مشرق الوجه باسما وهو يقول لي: "إن

وقتي الذي صرفته معك مهما يكن طويلا قد صرف في موضعه لأنه أفادك فائدة عظمى"

ثم قال: "إن المحلل النفسي الناجح هو الذي يوفق في معرفة مصدر الاضطراب، ثم يبين للمريض مكان المرض من نفسه، ويبصره بحالته، وهو الذي يعرف من المريض في هوادة كل مشاعره، ويدفعه في رقة إلى الإفصاح عن مشاكله ومخاوفه، وما كان يكنه في نفسه ويخشى أو يخجل من البوح به، وهو الذي يعينه على التخلص من الكثير من حالات الحصر ليحل مكانها استقلال سليم. إن التحليل النفسي يجب أن يرسم الطريق للمريض النفسي في قوة ليسير قدما نحو الاتزان الانفعالي. وقال دكتور مكسويل مفسرا: "إن القليل من الناس من يستطيعون قطع الطريق إلى النهاية، ولكن ربما أسفر عن تقدم هائل وضع قدم المريض في هذا الطريق وجعله يرى اتجاه قدمه ويتبين هدفه الذي يسعى إليه".

ثم قال إنني قد وجدت الطريق، وعرفت إلى أية جهة يقودني السير فيه، وهو يعتقد أنني سأظل أبدا فوق ذلك الطريق السديد! .. وخلال الساعة الأخيرة التي قضيناها معا وهو "يحصي" النتائج الطيبة، ويستعرض أيضا فقط الضعف والخطر في نفسي، قال: "لا يمكن لمخلوق قط أن يصل إلى الكمال التام ولكن في إمكانه أن يظل تائقا إليه" ثم استشهد بكلمات تولستوي التي بدأنا بها هذه القصة.

فهرس

تقديم ٥
وداعا.. للمرض النفسي............................ ١١
الفصل الأول: فوق المضجع ١٣
الفصل الثاني: لماذا لجأت إلى التحليل النفسي ١٧
الفصل الثالث: فرار ٢٥
الفصل الرابع: حديث مع المحلل النفسي ٣٥
الفصل الخامس: قصة حياتي ٤٢
الفصل السادس: الإفصاح ٥٣
الفصل السابع: الأحلام ٦٨
الفصل الثامن: الرجل الذي خلف المضجع ٨٥
الفصل التاسع: ذكريات قديمة......................... ٩١
الفصل العاشر: اللهيب والمصهر ٩٩
الفصل الحادي عشر: " روبين تليت " ١٠٥
الفصل الثاني عشر: الأم............................١١٥
الفصل الثالث عشر: الجنس في الطفولة والمراهقة........١٢٨
الفصل الرابع عشر: الجنس في الحياة الجامعية ١٣٩
الفصل الخامس عشر: معان جديدة للعلاقة الجنسية ١٥١
الفصل السادس عشر: الخنوثة.........................١٦٤
خاتمة ١٨٠